ايتالو كالفينو

مدن لامرئية

ترجمة: ياسين طه حافظ



ايتالو كالفينو

مدن لامرئية

مدن لا مرئية

رواية

Author: Italo Calvino	المؤلف: إيتالو كالفينو
Title: Invisible Cities	عنوان الكتاب: مدن لا مرئية
Translator: Yasin Taha Hafedh	ترجمة: ياسين طه الحافظ
Al-Mada P.C.	الناشر: دار المدى
First Edition: 2012	الطبعة الأولى: ٢٠١٢
Cover Designed by: Reem Al-Jundi	تصميم الغلاف: ريم الجندي
Arabic Copyright © Al-Mada	جميع الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

www.daralmada.com Email:info@daralmada.com

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

E-mail:almada112@yahoo.com

ISBN: 978-2-84306-136-3

كالفينو ومدن لامرئية

إيتالو كالفينو الذي يدعوه البعض بـ «الساحر» ويسميه الآخرون بـ«الخرافي» وتقول عنه عبارات النقد التقليدي «البارع متعدد الأساليب»، و«له لغة في اللغة».

مهما كانت دقة أو صحة هذه التعابير، فإيتالو كالفينو واحد من الكتاب القلة البارزين، كاتب صار معروفاً بطريقته الجميلة المربكة في الكتابة، وبدهائه في ذلك، لا تقرأ له صفحات حتى تقرّ ببراعته.

شيء آخر عن كالفينو قد يفيد في كشفه: إيتالو كاتب بالإيطالية، لغته، بمعنى آخر لغة نفسه وفكره ومشاعره. يجيد الفرنسية، ويكتب بها، لكنه لا يكتب بها إبداعاً، الإبداع يكتبه بالإيطالية، لغته. يجيد الإنكليزية ويكتب بها رسائل وردوداً ومقالات، لكنه لا يكتب أدباً بالإنكليزية، يكتب الأدب بلغته الإيطالية، هي أكثر حميمية، أكثر حرارة ويأتمنها على روحه وأسراره، وأيضاً هو لا يكتب بالإسبانية اللغة الرابعة التي يجيدها. الإيطالية للكتابة.

روايات كالفينو مشوّقة، والقارئ يواصل قراءة القصة بعد أن يجد نفسه في خضم من المفاجآت المتتالية وقد شدّه عالم زاخر بالوهم والغموض، لكنه قبل هذا يجد فيه شيئاً يعنيه، نداء خاصاً لنقاط بعيدة

غافية أو لمسألة منتظرة في ذهنه. هذا هو شأن كل كتب كالفينو يظل فيها القارئ يبحث عن الغرض، عن المغزى الذي يطرحه أو يريده الكاتب وهو يسعى وراء المعاني البعيدة التي يلفها الغموض، والتي هي «خفيّة» وهي قريبة، أيضاً من نفسه.

كالفينو، كاتب واثق بنفسه، مؤمن بقيمه الأدب الأدبية، بالجمالية العالية، هو واحد بين بورخيس ونابوكوف، مختلف عنهما، وينظر لهما، وينظران إليه، بإعجاب:

قال كالفينو مرة:

«اتفق معكم على أن كتبي قد تُفسر من وجهات نظر مختلفة، فقد تُفَسَّرُ في ضوء الوجودية، أو البنيوية، أو المفاهيم الماركسية أو الكانتية الحديثة أو الفرويدية أو مذهب يونغ، بالرغم من كل هذا يسرني عدم وجود مفتاح واحد لفتح جميع أقفال قصصي وحل رموزها..».

لا أعرف كاتباً آخر استخدم الأساطير للحديث عن العصر، واستخدم الوهم للحديث عن الواقع، وأشار بالمفردة السائبة للحقيقة، مثل إيتالو كالفينو. الخيال والوهم والأسطورة ثلاثة ينابيع يسقي بها معاً حقله الأدبي:

لإيتالو كالفينو:

قصة آدم، ذات ظهيرة

ماركو فالدو

الفارس اللاموجود

أجدادنا.

إذا مسافر في ليل شتاء.

مدن لامرئية
قلعة المصائر المتقاطعة
في الطريق إلى بيت العنكبوت.
البارون في الأشجار.
وآخر كتبه في ١٩٨٥:
بالومار.

يقول كالفينو: عندما أبدأ بكتابة شيء جديد أفعل ذلك وكأنني لم أكتب شيئاً من قبل....».

هذا هو السر إذن، هذا سبب أن لكل كتاب من كتبه أسلوبه، ويجمع بينها جميعاً روح واحد هو روح كالفينو، ذلك الإيقاع السري الدائم المشترك.

من أعماله، يمكن ملاحظة أنه مرٌّ من الخرافة إلى القصة وطول هذا الطريق هو الذي يشغل ذهن الإنسان النبيه وفكره بالشكوك والتساؤلات والرؤى الجديدة للأشياء القديمة، وبأسلوب بهيج ممتع...

يقولون: إن أهمية كالفينو تتأتّى من قدرته على إعادة صياغة الموضوعات الأدبية القديمة، بصيغ جديدة، هذا الأمر يجعل من الاعتيادي والقديم، مثيراً ومعاصراً، وإن البحث عن السر وراء الأشياء القريبة البسيطة لا بقصد تعليله، ولكن لمجرد الاقتراب منه، لوصفه، للتلذذ بوصفه..

بالومار، كتابه الأخير، تقارير جميلة، كتابات وصف، دفتر بيوغرافيا لإنسان يحاور الأشياء المحيطة به ويحاول الاقتراب إلى سرها. «وهكذا فهو يتأمل الغروب، وينظر إلى النجوم وإلى الحيوانات في حديقته ثم يقول لنا جملته الأخيرة بعد أن مسّه اليأس:

«نحن لا نستطيع أن نتأمل ما تعودنا على رؤيته في داخلنا....»

هذا هو كالفينو في بالومار، الكتاب الأخير، هو هو كالفينو في كتبه الأولى... يظل خرافياً!..».

و «مدن لامرئية» الذي اخترت ترجمته، هو أول كتاب: لإيتالو كالفينو أثار دهشتي، رواية، نعم رواية! هكذا يقول النقاد، تثير المشاكل نفسها التي أثارها الكاتب من قبل، ولكن بأسلوب مختلف وبإيجاز جميل ومذاق فيه العمق الثقافي ونكهة الشرق البعيدة والمؤثرة.

ففي هذه «الرواية» نرى قبلاي خان يراقب إمبراطوريته، فيراها تتعاظم وتتباعد أطرافها، وهي متماسكة، مثل ماسة صلدة لمّاعة، واقفة في الزمن مثل صرح شامخ... إنما هو في حاجة إلى الاقتناع الأخير، إلى السر الذي يتوق لمعرفته، لكي يتأكد، لكي يقتنع. لكن المدن التي يراها ماركو بولو في هذه الإمبراطورية. مدن حصينة لا يمكن غزوها، لا يمكن أن تُقْهَر. هي مدن ظاهرها رموز، مدن خفية لا ترى، والغريب فيها أنها تفتقر إلى الصلابة، إلى المادة في تكوينها هي مدن أشكال وأصوات وحركات، مدن تشعر بوجودها ولا تراها، مدن تستحضر في الأذهان رؤى أرواح من سجون البيرنيس، مدن تعجُّ بهمس المقابر والوشوشة!..

كما أن هذه المدن اللامرئية توحي بحالات ووقائع حصلت في الماضي يستحضرها القارئ ويتخيلها، مثلما هي صورة لفينيسيا متعددة الأشكال كما تخيلها الرحالة ماركو بولو، أو لعلها مجرد تشبيهات واستعارات، قلْ عنها ما شئت دون حرج فهناك توافق تام بين الصورة والفكرة في كل حالة من الحالات في (الرواية) لذا فكل التغيرات

والتأويلات ممكنة، والأفضل، أن تظل جميلة دون تفسير نهائي، كما يتمنى الكاتب أن تكون...

الجملة الأخيرة التي أقولها وأنا أقدم هذا الكتاب: «مدن لامرئية»: إنها خطاب قديم عميق لنا في هذا العصر، كتبه معاصر مهذب وشديد الحزن.

ياسين طه حافظ

المحتوى

١

٢

٩

1

لا يصدق قبلاي خان كل شيء يقوله ماركو وهو يصف له مدناً زارها في تطوافه لكن إمبراطور التتار استمر على الإصغاء لابن «البندقية» الفتي بانتباه وتطلع أكبر مما أبداهما لأي رسول آخر جاءه أو مكتشف وصله.

في حيوات الأباطرة، يلي الزهو بالمدى الشاسع للأقاليم التي اقتحمناها، ويلي الهياج والانتعاش اللذين تمنحهما لهم معرفتهم وفهمهم، حس بالفراغ يأتينا في المساء مع رائحة الفيلة بعد المطر ورماد شجر الرمل يبرد في المواقد، ودوار يجعل الأنهار والجبال ترتجف على منحنيات نصف الدائرة الأسمر للأرض أمام أبصارنا وتتدحرج الجبال الواحد بعد الآخر. أخبرنا الرسل بالدمار الذي أصاب طوابير الأعداء من هزيمة إلى هزيمة، أهلكوا قوات الملوك المجهولين الذين أغاروا على مواقع جندنا، فدفعوا مقابل ذلك، أتاوات سنوية من المعادن الثمينة والجلود المدبوغة وتروس السلاحف. إنها لحظة أسى تلك التي اكتشفنا فيها أن هذه الإمبراطورية، التي كنا نظنها مجمع كل العجائب، خراب لا شكل له ولا حدود... والنصر على الأعداء جعلنا ورثة بطالتهم الطويلة ولقد تبين لقبلاي خان الأمر خلال الجدران والأبراج المشققة. أشكال الزخرفة البارعة، وحدها التي سلمت فلم يأكلها النمل الأبيض.

مدن وذاكرة ١

حين تغـادرُ مكانك وتسيـرُ ثلاثة أيام نـحو الشرق، تصل ديوميـرا مـدينة بستين قبّـة من فضّـة وتماثيل من برونز لجمـيع الآلهـة، شـوارع مـرصوفـة بالرصـاص، ومسرح من الكريسـتـال وديكٌ ذهبي يصـيحُ على البرج كل صباح.

كل هذه الأشياء الجميلة ستكون مألوفة للزائر الذي ربما شاهدها في مدن أخرى. ولكن الميزة الخاصة بالنسبة لمن يصلُ هذا المكان، في مساء من أيلول، إذ تقصر النهارات وتضاء المصابيح متعددة الألوان في أبواب المطاعم ونسـمع نداء امـرأة : «اوو....!»، في المدخل، إنه سـيشـعـر بالحسد لأولئك الذين يعتقدون بأنهم عاشوا من قبل مسـاء مماثلاً لهذا المساء، ويظنون أنهم كانوا في ذلك الوقت سعداء.

مدن وذاكرة ٢

حين يسافر إنسان زمناً طويلاً عبر مناطق موحشة، يشعر بالرغبة في مدينة. في النهاية يصل إلى اسيدورا، مدينة لبناياتها سلالم حلزونية تنتهي بقواقع حلزونية حيث تصنع مراصدُ كاملة وكَمَامات، حيث الغريب يتردد دائماً بين امرأتين تقابلان امرأة ثالثة.

حيث معارك الديكة تكبر لتحول منازعات دموية بين الأفضلين، يفكر بكل هذه الأشياء حيثما رغب بمدينة اسيدورا. هي مدينة هذه الأحلام، مع اختلاف واحدٍ: إن المدينة التي حلم بها كانت تضمُّه وهو رجل شاب، وقد وصل إلى اسيدورا في شيخوخته.

في الميدان، هنالك جدار يجلس عنده الرجال كبارُ السن، يرقبون الشباب يمرون؛ جلس في صفّ معهم، الرغباتُ الآن ذكريات.

مدن ورغبة ١

هنالك طريقتان لوصف مدينة دوروثا: يمكنك القول إن أبراج الألمنيوم الأربعة الطالعة من بين جدرانها، تحمل سبعة أبواب مع جسور متحركة تعمل بنوابض تمتد فوق الخندق الذي يزوّد بالماء أربع قنوات خضر تجتاز المدينة، تقسمها إلى تسعة أقسام، كل واحدٍ بثلاثمائة دار وسبعمائة مدخنة.

ويرد في الذهن، أن البنات البالغات في كل قسم يتزوجن شباب الأقسام الأخرى ووالدوهم يتبادلون البضائع، فتحمل كل عائلة مما تدّخره من البرغموت وبيوض الخفش، واسطرلابات وأحجار كريمة ـ يمكن إذن أن تبدأ من الحقائق التالية حتى تعرف كل شيء تريده عن المدينة في الماضي والحاضر والمستقبل.

أولاً: ستقول لي مثلما قال قائد الجمل الذي حملني إلى هناك:وصلت هنا في أول شبابي، في صباحٍ ما، كثير من الناس كانوا يسرعون، شهدت مباشرة ثلاثة جنود على منصة يعزفون بأبواقهم، وكل العجلات تدور حول تلك المنصة، وتخفق أعلام ملوّنة في الريح.

قبل هذا، كنت عرفت الصحراء وحدها، وطرقَ القوافل.

في السنين التي أعقبت، استدارت عيناي لتتأملا آماد الصحراء ودروب القوافل، لكن الآن، أعرف أن هذا الممرٌ هو الوحيد الذي فُتِحَ لي من الممرات الكثيرة التي لاحت أمامي ذلك الصباح في دوروثيا.

مدن وذاكرة ٣

سدى يا قبلاي كبير القلب، سأحاول وصفَ زائيرا، مدينة الحصون العالية، يمكن أن أخبرك كم خطوةٍ تصعدُ إذ تعلو الشوارعُ مثل سُلّم، وبالدرجة التي تنحني فيها الأركادياً، وأيُّ نوعٍ من ألواحِ القصدير تغطيّ السطوح. لكني أعلم: إن قلت لك هذا فكأني لم أقلْ لك شيئاً.

المدينة لا تتكون من هذا، ولكن من العلاقات بين مسافات فراغها وأحداث ماضيها:

بين ارتفاع عمود النور والبعد من الأرض تتأرجح فوقها قدما المغتصب المشنوق، بين الخط الممتد من عمود النور إلى الدرابزون المقابل، وحبال الزينة والأعلام التي تجمل طريق الملكة، بين ارتفاع حبل الزينة ذاك، وقفزة الزاني الذي تسلق فوقه في الفجر، بين انحدار ماء القناة وتقدم القطة خلاله بينما ذلك المغامر ينزلق في النافذة؛ بين دائرة اللهب والزورق المسلح الذي ظهر فجأة من وراء اللسان الترابي في البحر.

مدن ورغبة ٢

في نهاية ثلاثة أيام من مسيرك جنوباً، تأتي إلى أناستاسيا، مدينة بقنوات، واحدة المركز، ترويها، وطيارات ورقية في سمائها. ينبغي الآن إدراج الأشياء المفيد شراؤها هنا: يشب، عقيق يماني، حجر أخضر، منوعات من العقيق الأبيض، لحم طائر التدرج الذهبي يطبخ هنا على نار خشب الكرز الموسمي ويرش عليه السمسق الحلو.

وأن أخبرك بالنساء اللاتي رأيتهن يستحممن في بحيرة حديقة فيها، واللاتي، في بعض الأوقات - كما يقال - يدعون الغريب ليخلع ثيابه ويطاردهن في الماء.

لكنني لن أخبرك بجوهر المدينة، فما أن يوقظ وصف أناستاسيا الرغبات كل مرة حتى يجبرك على خنقها، وأنت حين تكون في قلب أناستاسيا صباحاً، تكون رغباتك كلها قد استيقظت وأحاطت بك.

المدينة تظهر لك كلاً، لم تضع منك رغبةٌ واحدة، وأنك جزء منها. وإذ أنت تتمتع بكل مالم تتمتع به، فإنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً. لا تستطيع إلاّ أن تسكن في هذه الرغبة، وتكون أنت لها محتوى. هكذا هي القوة، أحياناً تدعى مؤذية، أحياناً حميدة.

هذه أناستاسيا، المدينة الخادعة، تملكك، إن تعمل فيها ثماني ساعات في اليوم كقاطع يشب أو عقيق يماني أو حجر كريم أخضر، فكدحك الذي يعطي للرغبة شكلاً، يأخذ من الرغبة شكلها، وتظل تعتقد بأنك تتمتع بأناستاسيا بينما أنت عبدها.

مدن وعلامات ١

تسير أياماً بين شجر وحجر، نادراً ما تلتمعُ العينُ لشيءٍ، فإن لمعت، عندئذٍ فقط تكون قد أدركت ذلك الشيء كعلامة لشيءٍ آخر: أثر في الرمل ينبئ عن ممرّ نمر، مستنقع يعلن عن عرق ماء. زهرة خبازي عن نهاية الشتاء، كل الأشياء الباقية صامتة وقابلة للتغير إلا الأشجار والحجار فكما هي.

في الأخير تؤدي بك الرحلة لمدينة تمارا، تخترقها خلال شوارعها الكثيفة بألواح علاماتها، الطالعة من الجدران، العين لا ترى أشياء ولكن صوت أشياء، وهذه تعني أشياء أخرى. فالكماشة تعني دار مركب الأسنان، الإبريق حانة، المطْرد ثكنة، الميزان بقالاً.

تماثيل وتروس تصور أسوداً ودلافين وأبراج نجوم: علامة لشيء، من يعلم ماهو؟ علامته دلفين أو برج أو نجم، علامات أخرى، تحذر مما هو محظور في هذا المكان (دخول الزقاق بعربات، التبول خلف الكشك، الصيد فوق الجسر).

وعلامات لما هو مسموح به (سقي الحمير، لعب البولنغ، حرق جثث الأقارب)، وترى تماثيل الآلهة من أبواب المعابد، كل واحد مقرون بدلالته القرن، الساعة الرملية، الميدوز ـ لذا يدركها العابد ويوجه صلاته وأدعيته باتجاهها الصحيح.

وإن لم يكن لبناية علامتها أو أن لها هيئة ما تدل عليها، فإن شكلها الخاص والموقع الذي تشغله في ترتيب المدينة كافيان ليخبرا بمهمتها: بلاط، سجن، دارُ سَكٍّ العملة، معهد فيثاغوري أو مبغى.

السلع التي يعرضها الباعة في أكشاكهم قيمتها ليست بذاتها ولكن بكونها علامات لأشياء أخرى. فعصابات الرأس المخرمة للامتياز، والمحفات المطلية بالذهب للقوة، المجلدات والحجال للإثارة. نظرتك تستكشف الشوارع كأنها صفحات مكتوبة: الشوارع تنطق بما تفكر به، تجعلك تكرر مجراها، وحين تظن أنك تزور تمارا، فإنك فقط تسجل الأسماء التي تعرّف المدينة بها نفسها وأجزاءها. مهما تكن حقيقة المدينة، وما يكون تحت هذا الغطاء الكثيف من العلامات، مما تظهره أو تخفيه، فأنت تغادر تمارا دون أن تكتشفها.

خارجها تمتد الأرض خالية حتى الأفق، السماء مكشوفة وسحب متسارعة فيها، تتمعن في أشكال الغيوم التي تكونها الصدفة والريح، وتجهد في إدراك تلكم الأشكال: سفينة شراعية، يد أو فيل....

مدن وذاكرة ٤

بعد ستة أنهارٍ وثلاث سلاسل جبالٍ تنهض زورا. المدينة التي ما رآها أحد مرةً ونسيها. هي من تلك المدن التي تتذكرها أبداً. هي تبقي صورة غير اعتيادية بين ذكرياتك. زورا لها مزية البقاء في ذاكرتك نقطةً فنقطةً، وهي تتوالى بشوارعها وبيوتها الممتدة على طول تلك الشوارع، وفي أبواب ونوافذ دورها، وإن لم يمتلك أي من هذه جمالاً خاصاً به أو غرابه.

سر زورا. يكمن في الطريقة التي تجري فيها نظرتك على مقاطعها واحداً بعد آخر، كما في النوتة الموسيقية، حيث لا يمكن تغيير أي من علاماتها أو تحويل مواقعها، حين لا يأتي الرجل الذي يحفظ عن ظهر قلب كيف بنيت زورا، هو في النوم ليلاً يمكنه أن يتخيل نفسه يسير في شوارعها ويتذكر النظام الذي تتبعه الساعة النحاسية، الظلة المخططة لدكان الحلاق، ثم العين ذات النافورات التسع والبرج الفلكي، كشك بائع البطيخ، تمثال الناسك، الحمام التركي، المقهى في المنعطف، الزقاق المؤدي إلى الميناء.

المدينة لا تفارق الذهن، هي مثل الدرع أو مثل قرص العسل، يقدر أي منا أن يضع في خلاياه الأشياء التي يريد تذكرها، أسماء الرجال

المشهورين، الفضائل، الأرقام، أصناف الخضروات والمعادن، تواريخ المعارك، مجاميع النجوم وأقسام الكلام.

بين كل فكرة ونقطة من خط الرحلة ألفة أو تباين يمكن أن يثبتا ليفيدا كعون آني للذاكرة، لذا فأكثر رجال العالم معرفة أولئك الذين يستذكرون زورا.

لكن، كان عبثاً انطلاقي لزيارة المدينة، فقد حكمت بالبقاء دون حراكٍ وفي حالة ساكنة أبداً، ليكون سهلاً على تذكرها. زورا، بهتت، وتهدمت، وزالت، الأرض نسيتها.

مدن ورغبة ٣

دسبينا يمكن الوصول إليها بطريقتين، بسفينةٍ أو على جمل، المدينة تقدم وجهاً واحداً للمسافر الذي يصلها براً، وتقدم وجهاً مختلفاً آخر للذي يصل عن طريق البحر.

حين تلوح لراكب الجمل، في أفق الأرض، قمم البنايات الشوامخ، وهوائي الرادار ومؤشرات الريح البيض والحمر تخفق، والمداخن تقذف الدخان يفكر بالسفينة، يعلم ما يراه مدينة، ولكنه يفكر فيها كمركبة ستنقله بعيداً من الصحراء، السفينة تكاد تبتعد وقد ملأ النسيم الأشرعة، وإن لم تنتشر بعد، أو أن مرجلها البخاري يرتج في قمرته الحديد ويفكر بكل الموانئ والتجارة الأجنبية والرافعات تنزل البضائع على الأرصفة، وينزل حيث يحل البحارة القادمون تحت أعلام مختلفة مخمورين يتدافعون، ويرى نوافذ الطوابق الأرضية المضاءة وفي كل نافذة امرأة تمشط شعرها.

وفي سديم الساحل يميز البحار هيئة راكب الجمل وهو يتلاشى، سرج مطرز بحافات لماعة بين سنامين، بقعتين، يتقدم ويتموج، يعرف أنها مدينة ولكنه يفكر بها كجمل حمولته العالية زقاق خمرٍ وخرج فاكهةٍ مجففةٍ، خمر التمر وأوراق التبغ.

وهاهو يرى نفسه في مقدمة قافلةٍ طويلةٍ تستقي الماء في ظلال النخيل المخططة بالشمس، يرى إلى قصور ذات جدران سميكةٍ بيضاء، وصالات أرضها من قرميد، حيث الغيد يرقصن حافيات الأقدام يحركن أذرعهن نصف محجباتٍ بأقنعتهن ونصف سافرات.

كل مدينةٍ تأخذ شكلها من الصحراء التي تقابلها، وهكذا يرى راكب الجمل والبحار دسبينا: مدينة حدودية بين صحراوين.

مدن وعلامات ٢

المسافرون إلى مدينة زيرما يعودون بذكريات واضحةٍ: زنجي أعمى يصيح في الزحام، مخبول يتأرجح بأفريز ناطحة سحاب، فتاة تمشي وتقود كوجراً من رسنه، وأكثر العميان الذين تطرق عصيهم على حجر الكويلت في زيرما هم سود، وفي كل ناطحة سحاب شخص جن، كل المجانين يقضون ساعاتٍ على الأفاريز، ليس هنالك فرو كوجر لذلك لم تحمله وتتباهى به الفتيات. المدينة ممتلئة: هي تكرر نفسها، فيعلق بعضها في الذهن.

أنا أيضاً عدت من زيرما: ذاكرتي تضم مناطيد تطير في جميع الاتجاهات، أمام النافذة: شوارع فيها محلات للوشم ينقشون جلود البحارة، وقطارات تحت الأرض، تسير جماعاتٍ، في الجانب الآخر يقسمون على أنهم شهدوا منطاداً يحوم بين قمم العمارات، ورسام وشم يغير الإبر والجلود ويعلق النماذج على مصطبته، امرأة بدينة تُنسّم لنفسها بمروحتها على رصيف المحطة.

الذاكرة ممتلئة، المدنية تكرر علاماتها فهي تبدأ لتستمر.

مدن خفاف ١

إيسورا، مدينة الألف بئر، يقال إنها تقوم فوق بحيرةٍ سريةٍ عميقة في كل جهاتها، وحيثما يحفر الناس حفراً عمودية داخل أرضها؛ ينجحون بسحب الماء منها، على كل مدى المدينة، دون تجاوزها.

حدها الأخضر يعيد للبصر الخط الأسود لحدود البحيرة المدفونة: ضاحية غامضة تكشف أخرى واضحة، كل شيء يتحرك في الشمس تبعده الموجة الوثابة المحبوسة تحت السماء الكلسية. نتيجة، هنالك شكلان من الدين في إيسورا آلهة المدينة بالنسبة لبعض الناس، تعيش في الأعماق، في البحيرة السوداء التي تغذي جداول تسري تحت الأرض بالنسبة لآخرين، الآلهة تعيش في الدلاء التي تصعد متدلّية من الحبال، تلك والتي تلوح فوق حافات الآبار، وفي القذيفة التي تدمر القناة وبين الشقوق في شبكة السمك. والشيوخ الثلاثة الجالسون على الرصيف يصلحون شباكاً، يقص واحدهم على الآخر للمرة المائة قصة الزورق المسلح الذي امتلكه مغتصب العرش، والذي يقول البعض، إنه ابن الملكة غير الشرعي ألقي بقماطة هنالك على الرصيف. هذه موجة ذكريات امتصتها المدينة مثل إسفنجةٍ فكبرت.

وأي وصف لإيسورا كما هي اليوم، ينبغي أن يستميل كل ماضي

ايسورا. المدينة، على أية حال، لا تكشف عن ماضيها، إنما هي تحمله كخطوط الكف مكتوباً في زوايا الشوارع، في أسلاك النوافذ، رابزينات السلالم والهوائيات ذات القضبان المشعة، وصواري الأعلام، تقابل ذلك علامات وأخيلة محفورة على كل قطعة ونقوش على الإدراج.

انطلق مبعوثو خان العظيم وجباة الضرائب لاكتشاف المناطق القصية، ثم عادوا إلى كاي ينك وإلى حدائق منغوليا التي يتمشى في ظلالها قبلاي ويصغي إلى تقاريرهم الطويلة. سفراؤه كانوا فرساً وأرمناً وسوريين وأقباطاً وأتراكاً: الإمبراطور هو الغريب عن كل تابعيه.

ومن خلال العيون والآذان يمكن أن تثبت الإمبراطورية وجودها لقبلاي. في لغات لا يفهمها قبلاي، يقدم المبعوثون معلوماتهم التي سمعوها بلغات لا يفهمونها. من هذا الإبهام، من الصرير الكثير الذي تطلقه النقود المجتباة التي يتسلمها الإمبراطور خان، من الأسماء الأولى والأخيرة، أسماء موظفين طردوا واحتجزوا، من أرقام أطوال القنوات التي غذتها الأنهار أوقات الجفاف، يفهم قبلاي ما يفهمه ماركو بولو الذي وصل تواً والذي يجهل اللغات اللافانتانيه، يعبر عن نفسه بإشارات بقفزات وصيحات عجب أو فزع وبنباح حيوان أو نعيب، أو بأشياء يخرجها من خرجه الوبري: ريش نعام، أحجار كريمة يرتبها أمامه كلاعب شطرنج. وفي عودة الرسل الذين بعثهم قبلان خان، ارتجل الغريب المخلص إيمائية تعني أن العاهل يجب أن يتدخل: إحدى المدن صورت بقفزة سمكة فلتت من منقار الغاق لتسقط في الشبكة، مدينة أخرى برجل عار يركض في النار ولا يحترق. ثالثة بجمجمة أسنانها خضر تطبق على لؤلؤه...

الخان العظيم يحل الرموز ولكن الصلات بينها وبين الأمكنة التي زارها بقيت غير مؤكدة، هو لا يعرف مطلقاً إن كانت أسفار ماركو مأثرة لمؤسس المدينة أو نبوءة منجم، رسماً ذا معنى، أو مقاطع تكشف اسماً. إنما هي غامضة كانت أو واضحة، أظهرت أن ما عرضه ماركو له قوة الرموز التي إذا شوهدت مرة لا تنسى ولا تلتبس. في عقل خان

تنعكس الإمبراطورية في صحراء ذات طبيعة متغيرة وغير مستقرة مثل حبات الرمل في ذلك المكان.

وإن لكل مدينة ومنطقة الأشكال التي صورتها رموز ذلك الرجل الغريب الآتي من البندقية.

وبمرور المواسم واستمرار الرسل تمكن ماركو من لغة التاتار ومصطلحهم الخاص ولهجات قبائلهم فصارت الآن تقاريره أدق وأكثر تفصيلاً مما يرغب به الخان العظيم فلم يبق هنالك أمر أو شأن لم يأت عليه بتفصيل كاف. كما أن كل معلومة جديدة يقدمها عن مكان صارت تذكر الإمبراطور بالإشارة الأولى وبالموضوع الذي أوما إليه ماركو من قبل. الحقيقة الجديدة التي اكتسبها هي واحدة من معاني ذلك الرمز الكثيرة. هو أيضاً، يضيف إلى الرمز معنى جديداً. ربما فكر قبلاي أن الإمبراطورية ليست غير فلك تدور به أوهام العقل.

سأل قبلان خان ماركو : «في الأخير، وفي اليوم الذي أعرف فيه كل الرموز، هل سأكون قادراً على امتلاك الإمبراطورية؟» .

فأجاب رجل البندقية: «مولاي لا تعتقد بهذا. ففي ذلك اليوم ستحول أنت رمزاً بين الرموز.»

حذرني السفراء من النساء، ومن الابتزاز والخديعة. فإن اتّقيت ذلك، سيخبرونني عن مناجم فيروز اكتشفوها أخيراً، وعن امتيازات أثمان الفراء المصنوعة من ريش الخطاف، واقتراحات للحصول على سيوف دمشقية. سأل الخان ماركو بولو: «وأنت؟ لقد عدت من أماكن تساوي هذه بعداً، وتخبرني بالأفكار التي تأتي الإنسان الجالس على عتبة بيته في المساء يتمتع ببرودة الهواء. إذن ما جدوى كل أسفارك؟»، أجاب ماركو: «الوقت مساء، ونحن نجلس على عتبات بلاطك. يمر علينا نسيم ناعم. فبأي بلد أوحت لك كلماتي، سوف ترى ذلك البلد من نقطة الامتيازات هذه، حتى وإن حلت بدل قصرك قرية مهملة في يباس أو حمل النسيم نتانة وحُولِ مصب.».

«إن نظرتي نظرة متأَمل غارق في أفكاره، أقر بذلك لكن ماذا عنك؟ لقد عبرت أرخبيلات وسهوباً وسلاسل جبال، وتقول الأشياء التي يقولها من لم يبرح مكاننا هذا.»

لقد تعلم ماركو أن قبلاي خان إذا ما ناكد أو ناقش جليسه فذلك يعني رغبته بمتابعة سير الفكِر الخاصة لذلك الجليس، لذا اتخذت إجابات ماركو واعتراضاته مكانها في رأس الخان وفي مجري ذاتي خاص.

لذا يمكن القول بأن ليس مما يهم أحدهم أن تقال الأسئلة والحلول بصوت مسموع، أو أن يتبادلاها بصمت وقد كانا في الحقيقة صامتين، عيونهما نصف مغمضة، مسترخيين على فراش أرجوحتيهما الشبكيتين، يدخنان بغليونين من الكهرمان.

تخيل ماركو بولو نفسه يجيب أو أن الخان تخيل جوابه، بأن أكثر الناس ضياعاً في ميادين المدن البعيدة، هو الذي فهم المدن الأخرى التي

اجتازها ليصل هناك، والذي يستذكر مراحل رحلته، ويجيء إلى الميناء الذي أبحر منه والأماكن التي ألفها في شبابه، وما يحيط ببيته، والميدان الصغير لمدينته حيث كان فيها طفلاً يثب مرحاً هناك..

هنا قاطعه قبلاي أو تخيل ماركو أن قبلاي قاطعه أو أن ماركو بولو نفسه هو الذي قاطع، بسؤال كهذا هل تتقدم دائماً ورأسك إلى وراء؟». أو «هل ما تراه دائماً يقع خلفك؟» أو «هل تحدث أسفارك دائماً في الماضي؟»

ذلك كله، لكي يستطيع ماركو أن يفسر أو يتخيل أنه يفسر، أو ينجح أخيراً في أن يفسر لنفسه أن ما شاهده، هو شيء يكمن في المستقبل القريب، وحتى إذا كان بعض أحداث الماضي، فهو ذلك الماضي الذي تغير شيئاً فشيئاً وهو يتقدم في رحلته، لأن ماضي المسافر يتغير على وفق الطريق الذي سلكه: ليس الماضي الحالي الذي يضيف له كل يوم يمر يوماً، ولكنه الماضي الأكثر بعداً. وفي وصوله إلى أي مدينة جديدة، يجد المسافر ماضياً له لا يعرف أنه امتلكه يوماً: مالم تعد تمتلكه، يظل بانتظارك في أماكن غريبة لم تشهدها بعد.

ماركو يدخل مدينة، فيرى شخصاً في ميدانها يعيش حياة ماركو أو حياة مشابهة لها. يقدر الآن أن يكون في مكان ذلك الرجل. لو توقف في الزمان، فيما مضى، أو لو أنه فيما مضى، وفي مفترق الطرق، بدلاً من أن يتخذ ذلك الطريق، سلك الطريق الذي يعاكسه، لوصل مكان ذلك الرجل في ذلك الميدان. إنه منذ الآن معزول عن ماضيه الحقيقي، أو المفترض، وهو لا يستطيع التوقف، عليه أن يستمر إلى مدينة أخرى، حيث ماض آخر من مواضيه ينتظره، أو ربما كان شيئاً يمكن أن يكون مستقبلاً له، الذي هو حاضر الآن شخص آخر.

المستقبلات التي لم تتحقق ليست غير أغصان للماضي، أغصان ميتة.

«هل الأسفار لاستعادة العيش في الماضي؟»

كان هذا سؤال خان في تلك اللحظة، السؤال الذي يمكن صياغته أيضاً بـ «هل الأسفار لإعادة حجب المستقبل؟...»

وكان جواب ماركو:

«في المكان الآخر مرآة معتمة، المسافر يرى فيها القليل مما له، ويكتشف الكثير مما ليس له ولن يمتلكه يوماً.».

مدن وذاكرة ٥

في موريلا، يدعى المسافر لزيارة المدينة، وفي الوقت نفسه لرؤية البطاقات البريدية التي تصورها كما هي: ذلك الميدان نفسه حيث الدجاجة في موقف الباص، ومنصّةُ الفرقة الموسيقية مكان جسر المشاة، سيدتان شابتان بمظلتين بيضاوين مكان مصنع العدد الحربية.

إذ لم يشأ المسافر أن يخيب أهل المدينة فعليه أن يمتدح بطاقة بريد المدينة ويفضلها على المدينة الحقيقية، مثلما عليه أن يكون حذراً من إبداء أسفه على ما قد تغير، وضمن حدود معينة عليه أن يعترف بأن فخامة وغنى موريلا البطاقة حين تقارن بموريلا المكان، لا تعادلها ميزة ضائعة، وما ضاع، على كل حال، يمكن إدراكه الآن في البطاقات القديمة، التي صورت حين كانت موريلا تلك أمام عيون المرء، المرء لا يرى شيئاً مجيداً قط، وقد يراها اليوم دون ما يُظن إذا ما بقيت موريلا دون تغير. على أية حال، المدينة اكتسبت جاذبية من خلال ما قد صارت إليه.

فالمرء يقدر الآن أن ينظر بحنين إلى الماضي ليشهدها كيف كانت.

حذار أن تقول لهم إن مدناً مختلفة أحياناً تتبع الواحدة الأخرى بالحجم نفسه وتحت الاسم نفسه، تولد وتموت دون أن تعرف الواحدة الأخرى، ودون تواصل بينهما. وقد يحمل سكان هذه المدن الاسم نفسه

واللهجة ذاتها وملامح الوجوه. ولكن الآلهة التي تحيا وراء الأسماء وفوق الأمكنة قد غادرت دون كلمة، وحل مكانها دخلاء. غير مجد سؤلك: هل الجدد أفضل أو أسوأ من القدامى، مادام لا تواصل بينهم. و البطاقات البريدية لا تكشف عن موريلا التي كانت إنما تصور مدينة أخرى، من الصُدف أن اسمها موريلا مثل اسم هذي المدينة.

مدن ورغبة ٤

في ميدان فيدورا ، المدينة ذات الحجار الرمادية، تقوم بناية معدنية وكرة من الكريستال لكل غرفة فيها ، تنظر في كل كرة فترى مدينة زرقاء هي أنموذج لفيدورا أخرى. هذه هي الأشكال التي تتخذها المدينة ، ولسبب أو آخر، لم تعد المدينة التي نراها اليوم، في كل عصر يُنْظر لفيدورا كما هي، فتصور معماريٌ طريقةً لجعلها تبدو مثالية ولكن بينما هو يقيم أنموذجه، تكون قد غيرت نفسها ، ولم تعد تلك التي كانت وما كان حتى أمس مستقبلاً ممكناً صار مجرد لعبةٍ في كرة زجاجية، البناية ذات الكرات هي الآن متحف فيدورا: كل سكان المدينة يزورونه، كل منهم يختار المدينة التي تمس رغباته وتلبيها ، يراها منعكسة في بركة فرعونية استمدت ما ءها من تلك القناة إذا لم تكن اليوم قد جفت. المشهد من أعلى يرسم صندوقاً يمتد طول طريق خاص بالفيلة قد زال من المدينة اليوم. ويكشف لك عن طرافة إنزلاق المنارة الملوية المتموجة التي لم تنل قاعدة ترتفع منها على خارطة إمبراطوريتك. أيها الخان العظيم، لابد من غرفة للاثنين فيدورا الصخرية الكبيرة والفيدورات الصغيرة في الكرات الزجاجية، لا لأنها جميعاً حقيقيات بالتساوي، ولكن لأنها جميعاً مجرد افتراضات، فواحدة تحتوي على ما ارتُضِي به لضرورته، بينما هو ليس كذلك والباقيات تحتوي على ما يُتصوَرُ أنه ممكن ثم بعد لحظة من احتوائه، لا يعود ممكناً.

مدن وعلامات ٣

المسافر الذي لا يعرف المدينة التي تنتظره بعد طريق طويل، سيدهشه البلاط، الثكنات، الطاحونة، المسرح والسوق، ففي كل مدينة من مدن الإمبراطورية تختلف كل بناية عن سواها وتقوم وتشخص بناية بنظام مختلف لكن ما أن يصل المسافر إلى المدينة المجهولة وتخترق عيناه هيكل العبادة المخروطي كالصنوبر، والغرف الصغيرة العالية، والمتابن وراء التواء القنوات، والحدائق والمزابل، حتى تتضح له قصور الأمراء معبد الحبر الأعظم ومعبد الخان، والسجن وحي الفقراء. إن هذا، يقول البعض، يثبت الفكرة التي تقول بأن كل إنسان يحمل في عقله مدينةً مكونة فقط من الاختلافات، مدينةً من دون أرقام، من دون شكل، تملؤها المدن الخاصة.

إن هذا لا يصح على «زو» ففي كل نقطة من هذه المدينة تستطيع أن تنام، تضع أشياءك، تطبخ، تصوغ ذهباً، تعرى، تحكم، تبيع، تسأل عن الغيب، كل واحد من سقوفها الهرمية يمكن أن يكون مشفى أو حمام حريم. المسافر يطوف في المدينة ولا يحمل إلا شكوكاً، هو غير قادر على تمييز ملامح المدينة، والسمات التي احتفظ بها بارزة في عقله، اختلطت هي أيضاً. استنتج: إذا كان الوجود في جميع لحظاته مكتملاً في ذاته، فزو مكان لوحدة هذا الوجود، ولكن ماهو مسوّغ وجود المدينة؟ وأي خط يفصل الداخل عن الخارج، وصوت العجلات عن عواء الذئاب؟...

مدن خفاف ٢

سأروي لكم الآن عن مدينة زنوبيا، مدينة مدهشة من هذه الناحية، فهي تقوم على أرض جافة وهي ضخمة الأبنية والدور فيها شيدت من الخيزران والخارصين. وكل طراميها وشرفاتها تقوم على ركائز ذات ارتفاعات متفاوتة، تجتاز الواحدة الأخرى، تربطها مرتقيات وممـاش جانبية، وتعلو الأبنية مظلات وبراميل لخزان الماء، ودوارات اتجاه الريح، وبكرات بارزات وبرك أسماك وغرانيق.

لا أحد يتذكر أي حاجة أو طلب أو رغبة دعت مؤسسي زنوبيا لأن يشيدوا مدينتهم بهذا الشكل، فلا تعلم إن كانت المدينة مقتنعة بصورتها التي نراها اليوم، والتي ربما تمت مرحلة بعد مرحلة، إنها الآن فكرة مغلقة. لكن ماهو أكيد، أنك لو سألت أحداً من أهل زنوبيا أن يصف لك رؤيته لحياة سعيدة، لكان جوابه دائماً أن يتصور مدينة مثل زنوبيا، بدعاماتها وسلالمها، ربما كانت زنوبيا خياله مختلفةً تماماً فتلك تخفق أعلامها وأطيارها، لكنها تأتي دائماً وبأواصر ثابَتة من الأنموذج الأول، إن في هذا، كما يقال، محاولةً بغير هدى لتقرير إن كانت زنوبيا من المدن السعيدة أو غير السعيدة، فمما يفقد المعنى أن نقسم المدن إلى هذين الصنفين، الأفضل أن نقسمها إلى اثنين: المدن التي تظل عبر السنين تمنح التغيرات فيها أشكالها للرغبات وتلك التي إما أن تمحو المدينةُ الرغباتِ فيها، أو أن تمحو الرغباتُ المدينة.

مدن تجارية ١

تتقدم ثمانين ميلاً في الريح الشمالية الغربية، فتصل مدينة يوفيميا، حيث التجار من سبعة أقوام يجتمعون في كل انقلاب صيفي أو كل اعتدال ربيعي. المركب الذي رسا هناك مع مركب زنجبيل وقطن سيعاود إبحاره، مقدمته مملوءة ببذور الفستق والخشخاش، المركب الذي أنزل تواً حمولته من أكياس جوز الطيب والزبيب راحوا يحشون حقائبه الجلدية بلفات من الموسلين الذهبي لرحلة العودة. إن ما يدفع الناس للسفر في الأنهار وعبور الصحاري والمجيء لهذي المدينة هو تبادل البضائع وحده، والذي يمكن أن يحصل في أي مكان آخر، في كل الأسواق داخل وخارج إمبراطورية الخان العظيم حيث تعرض السلع والغلال على حصر صفراء، وفي ظل مظلات متشابهة تحميهم من الذباب ومعروضة أشياؤهم بأثمان مخفّضة... ولكنك لا تأتي إلى يوفيميا لتبيع وتشتري حسب، أيضاً من أجل تلك الجلسات في الليل على البراميل والأكياس، وا لتمدد على لفات السجاد والنيران موقدة في ذلك السوق وسط العراء، وحين ترد كلمة على لسان أحدهم مثل «ذئب» ، «أخت» «كنز مخفي» «معركة» «جرب» «عشاق» يبدأ الآخرون إثر سماعهم أي من تلك الكلمات كل يقص حكايته عن الذئاب، الأخوات، الحرب،

العشاق، والمعارك، وأنت تفكر في رحلة العودة الطويلة التي تنتظرك من يوفيما ، المدينة التي يتاجرون فيها بالذكريات، تبدأ أنت في تجميع ذكرياتك واحدة بعد أخرى، يصير ذئبك ذئباً آخر ، وأختك أختاً أخرى ومعركتك معارك مختلفة....

وصل ماركو بولو تواً، فلم يبال بلغات «الليفانت» وقد استطاع أن يكشف عن شخصه بإخراج الأشياء من خرجه: طبول، سمك مملح، قلائد من خرز، نبات نادر، أسنان خنازير ـ كمان يعلن عنها بإشارات، قفزات، صيحات إعجاب أو رعب وتقليد عواء الثعلب أو نعيب البوم. الروابط بين عناصر قصة وأخرى لم تكن واضحة دائماً للإمبراطور، فالأشياء يمكن أن يكون لها معان مختلفة، فجعبة مليئة بالسهام يمكن أن تدل على حرب أو على وفرة الصيد، أو على مخزن لعدد القتال. وا لساعة الرملية قد تعني أن الوقت يمر أو أن الوقت مر، أو الرمل أو المكان الذي تصنع فيه الساعات الرملية. ولكن ما يؤكد للقبلاي كل حدث أو نبأ ينقله مخبُرُه عيي اللسان هو الفراغ الذي يظل حول ذلك، متجنباً ملأه بالكلمات، وصفُ ماركو للمدن التي زارها، له هذه الفضيلة: يمكنك التجول فيها في الفكر، تضيع، تقف تتمتع بالهواء اللطيف، أو تهرب.

وفي مرور الوقت، صارت الكلمات تحل محل الأشياء والإشارات في حكايات ماركو، أولاً علامات التعجب، الأسماء المفردة، الأفعال الجامدة، ثم العبارات وبعض الأحاديث والردود ثم الاستعارات والتشبيهات والمجازات. لقد تعلم الأجنبي لغة الإمبراطور، أو أن الإمبراطور صار يفهم لغة الأجنبي ولكنك يمكن أن تقول بأن التواصل بينهما صار أقل بهجة مما كان في الماضي: للتأكيد، صارت الكلمات أكثر نفعاً من الأشياء، والإشارات عند الإصغاء هي الأهم من أي إقليم أو مدينة بمعالمها، أسواقها، رسومها، حيوانها ونباتها ـ ومع ذلك فحين بدأ ماركو يتحدث عن الحياة في تلك الأمكنة، يوماً بعد يوم، ومساء بعد مساء، خذلته الكلمات، وشيئاً فشيئاً عاد يعتمد على الإشارات وملامح الوجه والنظرات.

وهكذا صار بعد كل معلومة مهمة يقدمها عن مدينة بمفردات مقتضبة، يكملها بتعقيب صامت، رافعاً يديه، باسطاً راحتيه إلى أمام أو إلى وراء أو إلى أحد الجانبين، وفي حركات مستقيمة أو منحرفة، مهتاجة أو هادئة، نوع جديد من الحوار قد تأسس. يدا الخان العظيم المثقلتان بالخواتم، تجيبان بحركات رسمية عن حركات يدي التاجر بارزتي العروق والبارعتين. وبما أن مسميات الأشياء تجددت بنماذج من البضائع الجديدة، فما يدخره من تعليق صامت صار يميل إلى الدقة والثبات... والابتهاج بعودته إلى بلاط الخان تضاءل عند الاثنين، في أحاديثهما، كانا يظلان، معظم الوقت، صامتين، وساكنين.

۳

لاحظ قبلان خان أن مدن ماركو (بولو تشبه الواحدة الأخرى، كما لو أن الطريق من واحدة إلى أخرى لا يتضمن رحلة ولكن مجرد تغير عناصر، والآن، من كذا مدينة وصفها له ماركو، صار عقل الخان العظيم يعتمد على نفسه، فبعد أن فكك المدينة قطعة قطعة، أعاد تركيبها بطرق أخرى مبدلاً أجزاءها، يرفعها ويعكس أوضاعها.

كان ماركو (بولو يروي رحلته، إنما لم يعد الإمبراطور يصغي له.

قبلاي قاطعه: منذ الآن، أنا الذي يصف المدن وستخبرني أنت إن كانت موجودة، كما هي في ذهنك، سأبدأ بسؤالك عن المدينة ذات السلالم المعرضة للريح الشرقية على خليج هلالي، سأدرج لك بعض أعاجيبها: خزان زجاجي يشبه الكاتدرائية لكي يستطيع الناس متابعة سباحة وطيران السمك الدوري ويجتذبون العرافين منها، النخلة التي تعزف بقيثار وسعفها في الريح، وحولها ميدان ذو مائدة مرمرية على شكل حدوة حصان عليها مفرش مرمري تعلوه أطعمة وأشربه من مرمر أيضاً.

- «سيدي كأن عقلك يطوف فيها، هذه هي المدينة التي كنت أخبرك عنها حين قاطعتني...».

- «هل تعرفها؟، أين هي؟ ما اسمها؟»

- ليس لها مكان أو اسم سأعيد سبب وصفها لكم: من عدد المدن التي نتخيلها، يجب أن نستثني تلك التي تتشابه مكوناتها دون خيط رابط بينها أو قانون داخلي ينتظمها أو فكر أو خطاب.

الأمر مع المدن، كما هو مع الأحلام، كل ما يمكن تصوره يمكن أن يُحلَم به، ولكن حتى الحلم غير المتوقع هو علامة تخفي رغبة أو تخفي نقيضها، خوفاً. المدن مثل الأحلام مكونة من رغبات ومخاوف.

مهما كان خيط خطابها سرياً، قواعدها غامضة، مشاهدها خداعة، فكل شيء يخفي شيئاً آخر.

«ليس لي رغبات ولا مخاوف،» أعلن القبلاي، «وأحلامي إما أن يحققها عقلي أو الصدفة».

«المدن أيضاً تعتقد بأنها من عمل العقل أو الصدفة. ولكن لا هذا ولا تلك كافيان لإقامة جدرانها، إن فرحتك لا تكمن في عجائب المدينة السبعة أو السبعين ولكن في جوابها عن سؤالك.».

«أو في السؤال الذي تسألك إياه وتجبرك على إجابته، تماماً كما جاءت طيبة من فم أبي الهول...».

مدن ورغبة ٥

من ذلك المكان، وبعد ستة أيام وسبع ليال. تصل زبيده المدينة البيضاء المكشوفة تماماً للقمر، شوارعها تدور حول نفسها كما لو كانت شلة خيوط. يروون هذه الحكاية عن تأسيس المدينة: ناس من أمم شتى حلموا جميعاً حلماً واحداً.

رأوا امرأة تركض في الليل عبر مدينة مجهولة، رأوها من ظهرها عارية، وبشعر طويل، حلموا أنهم يتعقبونها. وبينا هم ينعطفون ويستديرون، افتقدوها جميعاً. حين استفاقوا انطلقوا يفتشون عن تلك المدينة فلم يجدوها ووجدوا مدينة أخرى. قرروا تشييد مدينة كتلك التي في الحلم، عند رسم الشوارع، كل منهم اتخذ الطريق الذي سلكه في تعقبه، وفي كل مكان افتقدوا فيه أثر العارية الهاربة أنشأوا جداراً وفراغات تختلف عما في الحلم، لكي لا تستطيع الهرب مرة أخرى. هذه هي مدينة زبيده، التي استقروا فيها. ينتظرون ذلك المشهد يعود في إحدى الليالي. لا أحد منهم يقظان أو نائماً رأى تلك المرأة مرة أخرى، صارت الشوارع شوارع يسلكونها إلى أعمالهم كل يوم، ولا رابطة بعد بالمدينة التي في الحلم، والتي لذلك أوغلت في النسيان.

رجال جدد وصلوا من مواطن أخرى، كانوا قد حلموا حلماً مثل حلم

الرجال الذين قبلهم، وفي مدينة زبيدة، أدركوا شيئاً من شوارع الحلم، وغيروا مواقع الأركاديا وممرات السلالم، لتشبه أكثر طريق المرأة الهاربة وهكذا في البقعة التي تلاشت فيها، لم يبق هناك زقاق للهرب.

وإذ تصل أول مرة، لن تفهم ما الذي جر الناس إلى زبيدة هذه المدينة القبيحة، هذا الشرك.

مدن وعلامات ٤

لا تغيير واحد من كل تغييرات اللغة التي يتحتم على المسافر أن يواجهها، يمكن أن يعادل ما ينتظره من مدينة هايياتيا، لأن التغير فيها لا يمس الكلمات، إنما الأشياء، دخلت هايياتيا صباح أحد الأيام، وكانت حديقة ماكوليا تنعكس في زرقة البحيرات.

سرت محاذياً الأسيجة موقناً بأني سأكتشف فتيات حساناً يسبحن، لكني رأيت في قاع كل بحيرة القنافذ تأكل عيون المنتحرات وقد ربطت الصخور إلى أعناقهن واخضرت شعورهن من أعشاب الماء، أحسست أني مخدوع وقررت أن أطلب عدالة السلطان. تسلقت السلالم الرخامية للبلاط ذي القباب العالية، اجتزت ست باحات من القرميد فيها نافورات، وأحواض القاعة الوسطى مسيجة بحواجز حديدية ذات قواطع وقضبان. مدانون بسلاسل سود على أقدامهم، يحملون صخور البازلت من مقلع مفتوح تحت الأرض.

استطعت فقط أن أسال الفلاسفة، دخلت المكتبة الكبيرة، وضعت بين رفوف معلقة بحبال، اتبعت نظاماً هجائياً لأبجديةٍ زائلة. أعلى أسفل قاعات، وسلالم وقناطر. في غريفة من البردي قصية، في سحابة من دخان، لاحت لي عينان لامعتان لفتى منطرح على حصير، شفتاه تنطبقان على غليون أفيون.

- «أين الحكيم؟..».

أشار المدخن إلى خارج النافذة. كانت حديقة تنتشر فيها ملاعب أطفال: قناني البولنغ الخشبية التسع، أرجوحة، سلم، الصعود للقمة. الفيلسوف كان جالساً على العشب، قال: العلامات ترسم لغة، لكنها ليست اللغة التي تظن أنك تعرفها.».

أدركت أن علي أن أحرر نفسي من الخيالات التي صورت لي الأشياء التي رأيتها في الماضي: إذاك فقط أنجح في فهم لغة هايياتيا. على الآن أن أستمع إلى صهيل الخيل وضرب السياط وأنا خلو إلا من ارتعاش العاشق.

في هايياتيا عليك أن تمضي إلى الإصطبل، وتعتلي جواداً فتجري في الحلبات، لترى النساء الجميلات اللاتي يعتلين السروج، أفخاذهن عارية وعلى سيقانهن زَرَد، فما أن يصل شاب غريب حتى يلقينه على بالات القش أو على أكوام نشارة الخشب ويضغطن حلم نهودهن على لحم صدره.

وحين تزهد روحي فلا تريد غذاء إلا الموسيقى أعلم أني أحصل على ذلك في المقابر، ففي القبور يختبئ العارفون بين قبر وقبر يرتعش ناي، وتصعد أصوات قيثارات تجيب إحداها الأخرى.

ومن الحقائق في هايياتيا أن النهار يأتي حينما ترحل رغبتي فاعلم حينها أن علي ألاّ أنحدر إلى الميناء ولكن أصعد إلى أعلى أبراج القلعة وأنتظر سفينة تمر من هناك، ولكن هل ستمر سفينة من هناك؟.. لا لغة دون خداع.

مدن خفاف ٣

لا أدري إن كانت حال ارميلا هذه، بسبب أنها لم تنته أو لأنها دمرت أو كان السبب هو بعض السحر أو أنه حب أو نزوة وهوى. تبقى حقيقة بينه هي: إنها مدينة بلا جدران ولا سقوف ولا طوابق ليس لأرميلا شيء يجعلها تبدو مدينة، إلا أنابيب الماء ترتفع عمودياً حيث ينبغي أن تكون الدور، وتنتشر أفقياً حيث ينبغي أن تكون الطوابق، غابة من أنابيب تنتهي في حنفيات، في دشات، في تدفقات واندفاعات ماء. مقابل السماء. قوائم حوض بيض تصعد، أو صنبور حمامٍ أو أي قطعة خزف أخرى، تلوح مثل ثمرة متأخرة ما تزال عالقة بين الغصون.

ستظن أن السماكرة قد أنهوا عملهم ومضوا قبل أن يصل عمل تعبيد الطرق، أو غير ذلك كأن تكون خبرتهم الهيدروليكية، المدمرة، قد خلفت زلزالاً، أو أنه تآكل سببه النمل الأبيض. وسواء هجرت كمدينة قبل أو بعد أن تسكن، فارميليا لا يمكن أن تسمى مدينةً مهجورة، في أي ساعة ترفع عينيك بين الغلايين، قد ترى امرأة شابة، أو عدة نساء يافعات رشيقات منشغلات بصنابير أحواض السباحة أو محنيات الظهور تحت الأدشاش يتحاشين الماء أو يغسلن أو يجففن أو يعطرن أنفسهن أو يمشطن شعورهن أمام المرايا. في الشمس تنتشر خيوط الماء متلامعة من زخ الدش، من الصنابير النفاثة ورغوات الإسفنج.

لقد وصلت إلى هذا التفسير: ظلت الجداول التي تصب قنواتها في أنابيب أرميلا، من ممتلكات حوريات الغاب وحوريات الينابيع. ولأنهن اعتدن السفر عبر مسارب تحت الأرض، فقد وجدن سهلاً الولوج إلى المملكة المائية الجديدة، ليتفرجن من ينابيع مضاعفة، ليجدن مرايا جديدة، ألعاباً جديدة، طرقاً أخرى للتمتع بالماء. يمكن أن يتم غزوهن بِصُوَرٍ بشرية كان يقدم قداس لكسب رضا الحوريات اللائي استأن من سوء استخدام المياه، على أية حال، هن يبدون الآن راضيات لأنك تسمع أولاء الحسان في الصباح يغنين.

مدن تجارية ٢

في «جلوة» وهي مدينة عظيمة، كل الناس الذين يتحركون في الشوارع غرباء، إذا ما التقوا ففي ذهن كل واحد منم آلاف التصورات عن الآخر. إذا ما حضروا في حديث أو حدث غريب أو نكتة أو على طعام، فلا أحد يحيى أحداً، وعيونُ أحدهم تحدّق لثانية في عيون الآخر، ثم تشيح تبحث عن عيون أخرى. ولا تتوقف.

تأتي فتاة وهي تدوّر مظلتَها على كتفها، كما تدور ردفيها المستديرين. امرأة بالأسود تظْهر كاملَ عمرها، عيناها غير هادئتين تحت قناعها، وشفتاها ترتجفان، عملاق عليه وشم، شاب بشعر أبيض، أنثى قزم، توأمان ترتديان ثياباً قرنفلية اللون. شيء ما يجري بينهم، تتبادل نظراتهم مثل خطوط تصل شخصاً بشخص تسحب معها سهاماً، نجوماً، مثلثات، حتى يختلط كل هذا المزيج في لحظة، فتحل شخوص أخرى في المشهد: أعمى يقود فهداً من مقْوده، محظية ومروحة من ريش النعام وعسكري شاب وامرأة بدينة، وهكذا حين يصادف أن يكون الناس معاً، يتخذون لهم من الأركاديا سقفاً من المطر، أو يتجمعون تحت مظلات السوق يستمعون إلى فرقة موسيقية في الميدان. اللقاءات، الإغواء،

والمضاجعات والطقوس تتم دون أن يتبادلوا كلمة واحدة، دون أن يلمس إصبعُ أحدهم شيئاً من الآخر، وتقريباً دون أن يُرفَع نظر.

هزة الشهوة تثير «جلوة» باستمرار وهي أكثر المدن عفةً. إذا بدأ الرجال والنساء يُحيون أحلامهم الأنثوية، فكل خيال يصير شخصاً تبدأ معه قصةُ مطاردات. وذرائع، سوء فهم وصدامات واضطهادات. ويتوقف عرض الأخيلة.

مدن وعيون ١

القدامى شادوا فالدرادا على شواطئ بحيرة، جعلوا لدورها شرفات الواحدة فوق الأخرى وشوارعها عالية لها حواجز مقضّبة تشرف على الماء.

فالمسافر الذي يصلها يرى مدينتين: واحدة ترتفع فوق البحيرة والأخرى تنعكس مقلوبة فيها. لا شيء يحدث في إحدى الفالدرادتين إلا وتعيده الفالدرادا الأخرى. لأن المدينة شيدت بحيث تنعكس كل نقطة فيها في المرآة، والفالدرادا الأخرى التي في الماء لا تحمل كل زخارف وأفاريز الواجهات التي تنهض فوق وحسب، ولكنها تظهر مداخل الغرف وسقوفها وأرضياتها ومناظر القاعات ومراي خزانات الثياب.

سكان فالدرادا يعرفون أن كل فعل من أفعالهم هو في اللحظة نفسها ذلك الفعل وخياله في المرآة، وأن عالم مرآتهم يمتلك الأخيلة والإدراك ويمنعهم من النسيان، وحتى حين يثني العشاق أجسادهم العارية جلداً لجلد، طلباً للوضع الذي يعطي واحدهم متعةً أكثر وحتى حين ينفذ القتلة السكين في أوردة العنق الأسود، ويتدفق دم قاتم أكثر كلما ضغطوا السكين المنزلقة بين الأوتار، فليس الذين يعنيهم أكثر مضاجعاتهم هم أو قتلهم، إنما هو مضاجعات وقتل الأخيلة، تلك

الشفافة والباردة التي في المرايا، أحياناً تقلل المرآة من قيمة الشيء، أحياناً تنكرها. ليس كل مايبدو قيماً على المرآة يحتفظ بقيمته حين تعكسه المرآة. المدينتان التوأمان ليستا متساويتين إذ لا شيء يوجد أو يحدث في فالدرادا متساوق: كل وجه وإشارة ترد من المرآة بوجه وإشارة معكوسين، نقطة بنقطة، الفالدرادتان تعيشان الواحدة للأخرى، عيونهما متواشجة، لكن لا حب بينهما.

الخان العظيم حلم بمدينة وصفها لماركو.

الميناء في الظل ويتجه شمالاً، الأرصفة عالية فوق ماء أسود يلطم جدران الحواجز. السلالم الحجرية تنحدر، تشكل منزلقاً عند عشب البحر. زوارق مكسوة بالقار مربوطة، تنتظر الركب. المرتحلون ينتظرون على الرصيف ليودعوا عوائلهم. التوديعات تتم بصمت، لكن بدموع. الجو بارد، كل يضع شالاً على رأسه، صيحة من النوتي تضع حداً للتأجيلات، المسافر يجثم عند المجذاف، يتحرك مبتعداً ينظر إلى جمع الباقين وراءه. من الساحل، لا تميز ملامحه الآن.

الزورق يتجه إلى مركب مشدود إلى مرساة ويقف إلى جواره. ينتقل المسافر إليه، على السلم الخشبي ترى هيئة ضئيلة تتسلق صاعدة، تتلاشى، السلسلة الصدئة ترتفع وتتكسر على مقدمة السفينة. ا لناس الذين تخلفوا يتطلعون إلى المتاريس فوق صخور الرصيف الممتد في البحر، عيونهم تتابع السفينة حتى تستدير على آخر امتداد للأرض في البحر فيلوحون لآخر مرة بقطعة بيضاء.

قال الخان لماركو: «انطلق، اكتشف كل ساحل واعرف المدينة، ثم عد وأخبرني إن كان لحلمي صلة بالحقيقة...».

قال ماركو: «إعفني، يا سيدي، فليس من شك بأني عاجلاً أم آجلاً سأبحر من ذلك المرسى، ولكن لن أعود لأخبرك عنه. المدينة موجودة ولها سرها البسيط: هي تعرف الارتحالات وحدها، ولا تعرف الرجوع.».

شفتاه تمسكان بالغليون المصنوع من غصن العنبر، لحيته تنبسط قبالة لفاعه، أصابع قدميه الكبيرة معقوفة بعصبية في شبشبه الحريري، قبلان خان يصغي إلى حكايات ماركو بولو دون أن يرفع من دهشة حاجبيه، فهذه هي الأماسي التي يثقله فيها ظل من وسواس قلبه.

«مدنك غير موجودة، ربما لم توجد أصلاً، وأكيد أنها لن توجد مرة أخرى، لماذا تلهي نفسك بخرافات تتوسل فيها عزاء؟ أعلم جيداً أن إمبراطوريتي تتعفن مثل جثة في مستنقع، وداؤها يصيب الغربان التي تأكل منها، كما يصيب أشجار البامبو التي تنبت وتسمد بما يتلف منها، لم لم تخبرني بهذا؟ لماذا تكذب على إمبراطور التتار - أيها الأجنبي؟..»

أحسن ماركو بأن الأفضل له أن ينزل إلى مزاج العاهل الحزين:

«نعم، الإمبراطورية مريضة، وماهو أسوأ أنها تحاول أن تأتلف وقروحها هذا هو غرض استكشافاتي: تفحُّص آثار السعادة التي ما زال من الممكن اقتناصها، أنا أقيس المدّخر القليل منها. إذا أردت أن تعرف كم من الظلام حولك، عليك حد نظر عينيك، ثم تنفذ نظرك إلى الأضواء الخافتة البعيدة.».

في أوقات أخرى، كانت تمر بالخان نوبات من الخفة، ينهض واقفاً على وسائده، يقيس بخطى واسعة السجاد المفروش على الممرات وتحت قدميه، يتطلع من خلال درابزين الغرف العليا وتظل عيناه المبهورتان تسيحان على مدى حدائق بلاطه، حيث المصابيح معلقة في شجر الأرز.

بعدها يعلن: «وكذا أقول، إن إمبراطوريتي مصنوعة من كريستال، وجزيئاتها مرتبة في صيغ كاملة، ووسط جيشان العناصر، تتخذ ماسة ثمينة صلبة شكلها، جبلاً شفافاً متعدد الوجوه، في أسفارك لماذا تقتصر

انطباعاتك على المظاهر المخيبة ولا تصل الفعل الدائم الذي لا يكف؟ لم تظل انفعالات سوداً وكآبات لا تجدي؟ لماذا تخفي عن الإمبراطور عظمة قَدَره»؟..

أَجاب ماركو: «بينما في إشارة منك يا سيدي، ترفع المدينة الأخيرة واللا مثيل لها، جدرانها أظل أنا أجمع رماد مدن ممكنة أخرى تلاشت من أجل أن تشرق غرفة في مدينتك. مدن لن يعاد بناؤها ولن تُستَذكر. حينما تعرف بقية الأسى والذي لا يعوضه أي حجر ثمين، ستكون عند ذاك قادراً على أن تستنتج العدد الصحيح للقراريط التي ينبغي للجوهرة أن تجدها من أجل أن تتكون وتكتمل بها. وإلا فستكون استنتاجاتك خطأً من بدايتها.»

مدن وعلامات ٥

يا قبلاي الحكيم، لا أحد يعرف أفضل منك أننا يجب ألاّ نربك المدن بكلمات وصفها. مع ذلك، هنالك رابطة بين مدينة ومدينة فإذا أوضحت لك أوليفيا، المدينة الكثيرة الغلال والأموال، فأنا سأذكر غناها بوصف قصورها الباذخة والمقاعد ذات الوشي قرب النوافذ التي تتوسط زخارفها أعمدة لطاف... ووراء شبكها السلكي تتلامع نافورات تنشر الماء على النخيل حيث طاووس أبيض ينشر ذيله. لكنك ستدرك من هذه الكلمات كيف تلف أوليفيا سحابةٌ من سخام ودهان التصق بالبيوت في تلك الشوارع الهادرة. وإن الشاحنات المندفعة ألصقت السابلة بالجدران... وإن حدثتك عن صناعة ساكنيها، فسأتحدث عن رائحة جلود مخازنِ السراجة، عن النسوة يثرثرن وهن يحكن بسطاً من ليف، عن القنوات المعلّقة التي تحرك مساقطها الطواحين ولكن الصورة التي ترسمها الكلمات في عقلك النير، هي صورة قرد كبير يكشر عن أسنان مخرطة. فعل تكرره آلاف الأيدي آلاف المرات، ولكل فعل سرعته وإذا وجب أن أصف كيف تتوق روح أوليفيا للحياة الحرة والحضارة الصافية، فسأخبرك عن سيدات يطلعن ليلاً في زوارق مضاءة بين ضفتي مصبٍ أخضر...

إنما أذكرك أن هنالك في الضواحي وحيث ينزل الرجال والنساء مثل صفوف السائرين في نومهم، تجد من ينفجر ضاحكاً في الظلام، مطلقاً سيلاً من النكات والصراخ، أنت قد لا تعلم أني حين أتكلم عن أوليفيا، لا أستطيع استعمال كلمات مختلفة فإن وجدت حقاً أوليفيا ذات المليون شباك وطاووس. أوليفيا السراجين وحائكات بسط من ليف، أوليفيا الزوارق ومصبات الأنهار، فستكون عندها أوليفيا محطمة سوداء، حفرة يتكوم عليها الذباب، ولكي أصفها يجب علي أن أرتد على مجازات السناج وصرير العجلات وتكرار الأفعال، والسخرية.

الزيف في الأشياء، لا في الكلمات أبداً.

مدن خفاف ٤

مدينة سوفرونيا مكونة من مدينتين في واحدة منها ساحل كالحادلة بهضبتين منحدرتين، وفيها الفرسان ورنين سلاسلهم وعجلة لنسج الأقفاص، واجتياز الموت بدراجات بخارية محدودبة، فيها قمتها الكبيرة والحبال الأفقية الكثار مشدودة إليها من وسطها. النصف الآخر من المدينة من الجص والرخام والإسمنت وفيه الساحل والمعامل والقصور والمجزرة والمدرسة وسواها. أحد نصفي المدينة ثابت والآخر زائل. حين تنتهي فترة الإقامة في هذا النصف يقتلعونه، يفككون أجزاءه وينقلونه إلى مهملات نصف مدينة أخرى.

وهكذا وفي كل سنة يأتي اليوم الذي يزيح فيه العمال القوصرات الرخامية ويهدمون الوزارة والمعبد وأرصفة المرسى ومصفى النفط والمستشفى، يحملونها في شاحنات لتنقل من موقع إلى موقع حتى يكملوا رحلة الحَوْل. يظل هنا نصف سوفرونيا حيث أبراج الرمي وعروض الفرسان وصيحة تجيء من عربة حادلة تجري على الساحل شديد الانحدار.

وهكذا يبدأ عد الشهور والأيام التي يجب أن تنتظر حتى تعود القافلة وتبدأ الحياة الكاملة من جديد.

مدن تجارية ٣

حين يدخل المسافر ذلك الإقليم الذي عاصمته اوتروبيا ، لا يرى مدينة ولكن يرى عدة مدن حجمها واحد وغير مختلفة واحدتها عن الأخرى، تنتشر كلها على ساحل واسع منحدر.

اوتروبيا ليست واحدةً، ولكنها كل هذه المدن، وواحدة منها فقط تُسْكَنُ في كل مرة. البقية تظل خالية، وهذه الطريقة مستمرة وعلى التعاقب. سأخبرك الآن كيف يكون ذلك:

في اليوم الذي يشعر فيه سكان أوتروبيا بالتعب، وبأن كل واحد منهم لم يعد يطيق عمله أو أقاربه أو داره وحياته وديونه والناس الذين عليه أن يحييهم أو الذين يحيونه، حين ذلك يقرر كل سكان المدينة الارتحال إلى مدينة أخرى تكون بانتظارهم، مدينة ثانية خالية وطيبة وجديدة، وهناك يتخذ كل له عملاً جديداً، زوجة أخرى، ويطل من نافذته على مناظر أخرى، ويقضي أوقاته بمسرات مختلفة ومع أصدقاء آخرين ويتعهده والدان آخران، وهكذا تتجدد حياتهم من انتقال إلى آخر، بين مدن، واجهاتها ومنحدراتها وجداولها وهواؤها تجعل كل موقع فيها مختلفاً نوعاً من الاختلاف عن المواقع الأخرى، وما دام مجتمعهم منظماً دون تطرف في الثروة أو في السلطة، فالعبور من مهمة إلى أخرى يتم

دون صدمة أو غريب إثر، المتنوعات أكيدة والمستجدات مضاعفة لذا يندر أن يعود فيها إنسان طيلة حياته إلى عمل غادره.

وهكذا تكرر المدينة حياتها بنفسها، تصعد وتنزل على لوحة شطرنج فارغة، وتتنقل عليها. سكانها يعيدون المشاهد نفسها، وقد تغير الممثلون يعيدون الأحاديث ذاتها بلهجات مختلطة بطريقة أخرى، وهم يفتحون أفواهاً متعاقبة في تثاؤب أزلي. وحدها، دون جميع مدن الإمبراطورية، تبقى أوتروبيا هي نفسها دائماً،

مركوري، إله التحول، الذي تقدسه المدينة، أنجز هذه المعجزة الغامضة.

مدن وعيون ٢

إنه مزاج الحاكم ذاك الذي أعطى مدينة زمرود شكلها. إذا مررت تصفر وأنفك فرس صغيرة وراء الصافرة، سوف ترى المدينة من أسفل: أطر النوافذ، الستائر المرفرفة، عيون الماء، وإن سرت رأسك مرفوع وأظافرك تحفر راحتي يديك، يستقر تحديقك في الأرض، وفي المجرى، في أغطية البالوعات وموازين السمك والأوراق المهملة، لا يمكنك القول إن ملمحاً من ملامح المدينة هو أكثر صدقاً من الآخر، ولكنك تسمع أكثر ما تسمع عن زمرود العليا، أولئك الذين يتذكرونها بينما هم يغرقون في زمرود السفلى، يتابعون كل يوم الامتدادات الخالية والشوارع نفسها، ويجدون كل صباح سوء طبع اليوم السابق متيبساً أسفل الجدران، فبالنسبة لكل واحدٍ منا، عاجلاً أم آجلاً، يجيء النهار حين تهبط نظراتنا عبر مجاري الماء ولا نعود قادرين على رفعها وتجاوز الحصن الكبير. العودة ليست غير ممكنة ولكنها أكثر ندْرة من أي شيء.

وهكذا نستمر على الحركة خلال شوارع زمرود وعيوننا تحفر في خلاياها البعيدة، في أسسها وآبارها.

مدن وأسماء ١

هنالك القليل مما أستطيع قوله لك عن أكلورا، غير ما يردده سكانها:

نظام للفضائل العامة، وللأخطاء العامة، بضعة شاذون، بعض المدققين في اتباع القواعد، مراقبون قدامى مما لا سبب يدعو لاعتبارهم الآن أمناء، ينسبون إلى أكلورا أصنافاً ثابتة من المزايا، ويؤكدون على مقارنتها بتلك التي للمدن الأخرى في أزمانها. ربما لا أكلورا المكتوبة، ولا أكلورا المرئية قد تغيرتا كثيراً منذ ذلك الحين، ولكن ما كان غريباً صار مألوفاً، وما كان طبيعياً هو الآن غريب، والفضائل والأخطاء فقدت روحها أو شرها، فهي قد اختلطت الآن في جملة الفضائل والأخطاء.

لا شيء يقال في أكلورا صحيح أو حقيقي، مع ذلك فهذه الحسابات قد خلقت للمدينة صورة صلبة وثابتة. فيها الأفكار غير المنتظمة، والتي قد تحدس حدساً فقد افتقدت أساسها المادي، وهذه هي النتيجة: المدينة التي يتحدثون عنها، فيها كل ما يريدون أن يوجد فيها، بينما المدينة الحقيقية التي تقوم الآن فوق تلك، هي الأقل وجوداً.

لذلك فإن أردت أنا أن أصف لك أكلورا معتمداً على ما رأيته وخبرته، علي أن أقول لك:

هي مدينة بلا لون، بلا شخصية، مزروعة هناك بلا هدف.

لكن هذا غير صحيح أيضاً، ففي ساعات معينة، في أمكنة معينة على طول الشارع، تجد أمامك واضحاً ملمح شيء لا يقبل الخطأ، نادرٍ، ربما باهر، تقول ماهو، ولكن ما قبل قبل هذا عن أكلورا يحبس كلماتك، ويجبرك على إعادة الكلمات مع نفسك دون التفوه بها.

لهذا فسكانها يعتقدون بأنهم يعيشون في أكلورا التي تنمو مع اسم اكلورا ولا يلحظون اكلورا التي تنمو على الأرض. وحتى أنا، الذي أميل للاحتفاظ بالمدينتين معاً في ذاكرتي، أستطيع الكلام فقط عن هذه الواحدة، لأن ذكرى أكلورا قد ضاعت بسبب افتقاد الكلمات التي تعبر عنها...

قال الخان: «منذ الآن، سأصف لك المدن، وفي رحلاتك سترى إن كانت موجودة»، ولكن المدن التي زارها ماركو بولو كانت دائماً مختلفةً عن تلك التي فكر بها الإمبراطور. «ومع ذلك، فقد أقمت في ذهني نموذجاً يمكن أن تستنتج منه كل المدن المحتملة، إنه يحتوي على كل شيء يتصل بالمدينة المثال. وما دامت المدن الموجودة تختلف بدرجات متفاوتة عن ذلك المثال، فالذي أريده هو الاختلافات عن ذلك المثال، وأن أجمع أكثر التوافقات الممكنة.».

«كذلك فكرت بالمدينة الأنموذج التي أستنتج منها كل المدن الأخرى...».

أجاب ماركو: «إنها مدينة مكونة من الاستثناءات، من الممنوعات، من المتعارضات والمتناقضات فإن كانت مدينة كتلك هي الأقل احتمالاً فبتقليل عدد هذه العناصر نزيد احتمال وجودها. لذا علي أن أطرح الاستثناءات من أنموذجي، وأحدد الاتجاه الذي أبدأ السير فيه، وعندها سأصل واحدةً من المدن التي توجد دائماً كاستثناء. ولكني لا أستطيع إرغام نفسي على المواصلة بعد حدٍ معين: سأصل مدناً يحتمل جداً أن تكون حقيقية.».

من درابزين القصر العالي يراقب قبلاي خان العظيم إمبراطوريته وهي تكبر، لقد امتد خط الحدود حتى أحاط بالأقاليم التي غزاها، لكن تقدم جيوشه قد شمل مناطق نصف قاحلة وقرى بائسة وأكواخاً ومستنقعات لا ينبت فيها الرز وشعوباً هزيلة وأنهاراً يابسة وقصباً. «إمبراطوريتي اتسعت كثيراً إلى الخارج، إنه الوقت الذي تنمو فيه من تلقاء نفسها.»

هكذا كان يفكر الخان، واستمر يحلم ببساتين الرمان، بالثمار شديدة النضج وهي تشق جلدها، بأطيار «الدرابين» ذات السنام وهي على السفافيد تحمر ويقطر زيتها في النار، وبأقنعة من المعدن يتقي بها انهيالات التراب وشذرات الذهب اللوامع فيه.

المواسم وفيرة الغلال، ملأت الأهراء، والأنهار في فيضانها حملت خشب الغابات الذي سيسند السقوف البرنزية للمعابد والقصور.

قوافل العبيد تجتاز الجبال ذات الصخور الخضر المرقطة والممتدة عبر القارة. الخان العظيم يفكر في إمبراطورية تغطيها المدن الفخمة التي تنوء بثقلها الأرض، المكتظة بالناس والثروات والحركة، المثقلة بالزينة والمكاتب والمعقدة بالميكانيك واللجان؛ مدن ممتلئة، متوترة وثقيلة.

قبلاي خان يفكر: «الإمبراطورية ستسحق نفسها»، وفي أحلامه تبدو المدن كطيارات ورقية، تبدو مدببة مثل الرماح، مدناً تتنقل مثل البعوض ومثل البعوض تستقر، تبدو مثل عروق الورق، مخططة مثل راحة الكف، مدناً مزخرفة، مخرمة ترى من خلال غموضها ولا حقيقتها.

قال لماركو: «سأخبرك بما رأيته في الليلة الماضية: وسط أرض صفراء منبسطة منقطة بالرجم والجلاميد، رأيت من بعيد أبراج مدينة

ترتفع قبابها المدببة وقد أقيمت بشكل يمكن لقمر في رحلته أن يستريح على واحدة منها حيناً وعلى الأخرى حيناً آخر، أو ينزلق على حبال الرافعات.».

قال له ماركو بولو: «مدينة أحلامك هي «لاليج» أهلها رسموا هذه الطلبات ولاحت إجاباتها في سماء الليل، لذلك سيعطي القمر كل شيء في المدينة قوة النمو والنمو إلى مالا نهاية.»

قال قبلاي خان : «هنالك شيء لا تعرفه، القمر، امتناناً، وهب مدينة لاليج امتيازاً نادراً: ذلك هو أن تنمو في إضاءته وإشراقه عليها».

مدن خفاف ٥

إن اخترت الرضا بما أقول، فذلك حسن، سأخبرك كيف أنشئت أوكتافيا، مدينة نسيج العنكبوت: هنالك فراغ بين جبلين شاهقين، المدينة معلقة فوق ذلك الفراغ، مشدودة إلى القمتين بحبال وسلاسل ومعابر ضيقة. فأنت تسير فيها على روابط خشبية صغيرة حذراً من أن تزل قدمك إلى الفراغ. بضع غيماتٍ تلتمع عابرة، وراءها إلى أسفل، يلمع قاع الهوة الكبيرة.

هذا هو تكوين المدينة، شبكة تخدم كممر وسند من السقوط كل ما بقي منها، بدلاً من أن يرتفع إلى أعلى، يتدلى إلى أسفل. سلاسل من جبال، أراجيح نوم، مساكن صنعت مثل أكياس كبيرة، مشاجب ومصاطب مثل زوارق صغيرة، سقاءات ماء، مفرغات هواء ومباصق، سلال معلقة في خيوط، مناضد صغيرة، دشات، عقل للرياضة وحلقات لألعاب الأطفال، سيارات «كيبل» تنزلق على حبالها، ثريات وزهريات تصعد منها نباتات متسلقة.

حياة أهل أو كتافيا المعلقة فوق تلك الهاوية ليست أكثر اطمئناناً من الحياة في المدن الأخرى، فكل الذي يعرفونه أن الشبكة ستستمر طويلاً.

مدن تجارية ٤

لكي يقيم سكان ارسيليا علاقات تنظم حياة المدينة، فقد مدوا خيوطاً من أركان البيوت، بيضاً أو سوداً أو رمادية، أو سوداً بيضاً، حسب العلاقة التي يريدون تأشيرها، رابطةَ دمٍ أو تجارة أو ملكية أو وكالة، وحين تصير الخيوط كبيرة العدد، متشابكة فلا يستطيعون المرور بينها، يغادر الناس المدينة، تقوض البيوت ولا يبقى منها إلا الحبال والمساند.

يخيم أهل أرسيليا اللاجئون على أحد جانبي الجبل بكل أشيائهم المنزلية وبضاعتهم، ينظرون من ذلك السفح العالي إلى المتاهة الكبيرة من الجبال والأعمدة الصاعدة من ذلك السهل، تلك هي مدينة أرسيليا مستقرة أما هم فلا شيء...

يقيمون ارسيليا أخرى في مكان آخر ينسجون نمطاً مشابهاً من الحبال: يريدونها هذه المرة أكثر تعقيداً، وفي الوقت نفسه أكثر انتظاماً مما في الأخرى، ثم يهجرون هذه ويحملون أنفسهم وبيوتهم إلى مكان آخر أكثر بعداً.

وهكذا ، حين تسافر في إقليم أرسيليا تأتي على خرائب مدن بلا جدران، فقد درست جدرانها، وعلى موتى بلا عظام، فقد دحرجت الريح العظام بعيداً.

نسيج العلاقات العنكبوتية الشائكة يبحث عن شكل.

مدن وعيون ٣

بعد مسيرة سبعة أيام عبر الأشجار لا يرى المسافر المتجه إلى بوسيز المدينة وهو قد وصلها، فالركائز النحاف التي تصعد من الأرض والتي تقوم عليها المدينة تفصل بين الواحدة والأخرى مسافة شاسعة، وتضيع أعاليها في الغيوم.

الناس يتسلقون المدينة بسلالم، وهم لا يظهرون على الأرض، فهم وكل ما يحتاجونه هنالك، في الأعالي، ولا أحد يفضل النزول إلى الأسفل لا شيء من هذه المدينة يلامس التراب إلا سيقان «البشروس» الطويلة تلك والتي تستند المدينة عليها.

وحينما تكون الأيام مشمسة يهبط على زخرف تلك الخطوط ظل مضلع هنالك ثلاثة افتراضات عن أهل باوسيز: هي : إنهم يكرهون الأرض؛ وإنهم يحترمونها كثيراً حد تجنب أي تماس بها وإنهم يحبونها كما كانت قبل أن يوجدوا عليها، وبالمناظير والمراصد الموجهة إلى أسفل لا يتعبون من تفحصها ورقةً ورقةً وحجراً حجراً ونملةً نملةً، يتأملونها مفتونين وهم بعيدون عنها.

مدن وأسماء ٢

نوعان من الآلهة يحرسون مدينة ليندرا. كلا النوعين صغار جداً فلا يرون، وكثيرون جداً فلا يحصون. نوع يقفون في أبواب الدور، داخلها، تحت شرفات الدور المجاورة والمظلات، وفي أوقات الارتحال، يتبعون العوائل المنتقلة ويختارون لأنفسهم مكاناً في مستودع المفاتيح والباقون يستقرون في المطبخ أو يختفون تحت القدور وفي أنبوب المدخنة أو ركن المكنسة: هم ينتمون إلى الدار، وحينما ترحل العائلة الساكنة فيها يظلون مع النازلين الجدد، فربما كانوا في هذا المكان قبل أن تقام الدار، وبين أعشاب المكان الخالي، أو إنهم كانوا مختفين في علبة صدئة، فإذا ما هدمت الدار ونهضت مكانها عمارة لخمسين عائلة، تضاعفت تلكم الآلهة في مطابخ الشقق العديدة.

ولكي نميز بين نوعي الآلهة سندعو النوع الأول بنيتس والآخر ليرز. في الدار الجديدة المعطاة ليس ضرورياً أن يبقى الليرز مع الليرز ولا البنيتس مع البنيتس إنهم يزورون بعضهم بعضاً، يتمشون معاً على نقوش الطنف والأفاريز وفي أنابيب المدافئ، وهم يتحدثون عما يقع للعائلة من أحداث، وغير مستبعد إنهم يختصمون، ولكنهم يقضون سنين معاً بسلام.

وإذ تراهم جميعاً في صف، فلا يمكنك أن تندس بينهم. ينظر الليرز للبنيتس إنهم من أصول مختلفة جداً وإن عاداتهم تتجاوز جدرانهم، وكان عليهم أن يجدوا لأنفسهم مكاناً والبنتيس يلتقون بليرز الأماكن المشرقة ولكن العفنة أو بليرز الأكواخ الصغيرة شديدي الحساسية وسوء الظن، الوضع الحقيقي لليندرا موضوع نقاش دائم، البنتيس يعتقدون بأنهم روح المدينة، حتى وإن وصلوها في السنة الماضية، ويعتقدون بأنهم سيحملون ليندرا معهم حينما يهاجرون.

الليرز يعتبرون البنتيس ضيوفاً مزعجين عابرين ومتطفلين، وبأن ليندرا الحقيقية تمنح الجميع ما تمتلك، وليندرا، التي كانت هنا قبل وصول أولاء البنتيس الزائلين، هي التي ستبقى بعد أن يرحل الجميع.

نوعا الآلهة يشتركون بهذا: إنهم ينتقدون كل ما يحدث في العائلة أو في المدينة، البنيتس يخرجون العجائز والجدود الكبار والعمات والخالات المعمرات، بمعنى آخر، عائلة الزمن الذي مر، الليرز يتحدثون عن الظاهرة قبل أن يتم التدمير، ولكن هذا لا يعني أنهم يعيشون على الذكريات وحدها: هم يحلمون طوال النهار، يفكرون بعمل الأطفال وبحياتهم في المستقبل عندما يكبرون، أو بما ستصبح عليه هذه الدار وفي مثل هذه الجيرة مع (الليرز) وإذا ما وقعت المدينة بأيدٍ طيبة.

إذا أصغيت جيداً، وبخاصة في الليل، ستسمعهم في بيوت ليندرا يقاطع واحدهم الآخر، يغيظ واحدهم الآخر، ستسمعهم يهزؤون أو يسخرون بضحك مكتوم.

مدن والموتى ١

في ميلانيا، وكلما دخلت الميدان، تجد نفسك مستمعاً لحوار: الجندي النفاج والمتطفل يأتيان من باب، يلتقيان بالمتشرد الشاب والمومس؛ أو أن أباً تاعساً يقذف بتهديداته الأخيرة من عتبة بيته على ابنته الغانية، فيقاطعه الخادم الأحمق الذي يحمل خبراً إلى سمسارتها. تعود إلى مالينا بعد سنين وتجد الحوار نفسه ما يزال مستمراً. في ذلك الوقت يكون المتطفل ميتاً، وكذلك المتشرد والأب التاعس، ولكن الجندي النفاج، والفتاة الغانية والخادم الأحمق قد اتخذوا أماكنهم وقد تبادلوا الأمكنة مع المنافق والمؤتمن والمنجم، سكان ميلانيا يجددون أنفسهم، المشاركون في الحوار يموتون الواحد بعد الآخر وأثناء ذلك يولد الذين يأخذون مكانهم، بعض في هذه الوجبه.. وبعض في تلك..

عندما يغير الواحد دوره أو يترك الميدان إلى الأبد أو يدخله لأول مرة، فهنالك تجري سلسلة من التغيّرات، حتى يتم إعادة الدورة كلها، ولكن في هذا الوقت يستمر الرجل العجوز الغاضب في جوابه للخادم النبيهة، غير المتأكدة، والملحفه بمتابعة الشباب الذي يُورَث. كما تظل المربية تعزي ربيبتها، وإن لم يحتفظ أي منهم بعينيه اللتين كانتا له من قبل ولا بالصوت نفسه.

يحدث أحياناً أن رجلاً مفرداً يتخذ له مكاناً في دورتين، أو أكثر في وقت واحد، طاغية ومحسناً ورسولاً ـ أو أن واحداً يضاعف مرتين أو عدة مرات، حتى يصير مائة شخص أو ألفاً، من أهل مالينا: ثلاثة آلاف من المنافقين، ثلاثون ألف طفيلي، مائة ألف ابن ملك سقطوا في حضيض الناس بانتظار من يميزهم.

وإذ يمضي الزمن فإن أفراد هذه الدورات لا يعودون كما كانوا من قبل تماماً فما هو أكيد، إن الفعل الذي مضوا فيه إلى المستقبل خلال المكائد والمعجزات يؤدي إلى نوع من الفضيحة في النهاية، وهذه تظل تقترب حتى حين تشتد المكيدة أكثر فأكثر وتزداد العقبات، إذا نظرت إلى الميدان في لحظات متعاقبة، تسمع الحوار يتغير من فصل إلى فصل وإن كانت حياة أهل ميلانيا من القصر حد أنهم لا يشعرون بذلك.

ماركو بولو يصف جسراً، حجراً فحجرا، فسأله قبلاي خان :
«ولكن أي حجر ذلك الذي يستند عليه الجسر؟ »...

فأجابه ماركو: «لا يستند الجسر على حجر واحدٍ أو سواه، ولكنه مسنود بكل القوس الذي أقيم به.».

يبقى قبلاي خان صامتاً، يفكّر، ثم يضيف: «لماذا تتكلم عن الحجر إذن ما دام القوس هو الذي يعنيني؟ ».

أجاب بولو: «لا قوس بلا حجر»

سأل قبلاي خان ماركو بولو: «هل رأيت مدينة تشبه هذه من قبل؟» «وبسط يده ذات الخواتم من وراء ظلة يختته الملكي وهو يشير إلى أقواس القناطر فوق القنوات وقصور الأمراء التي تنغمس سلالم أبوابها المرمرية في الماء وأضواء المراكب وهي تتسارع متعرجة مع حركة مجاذيف الزوارق العجلة التي أفرغت سلال غلالها في ساحة السوق، وقد بدت كل الشرفات والأرصفة والسداد وأبراج الأجراس، وحدائق الجزيرة تزداد الآن خضرة في رمادية ذلك المدى المسائي الذي يوصل الجزيرة بالبحر.».

كان الإمبراطور يصحبه صفيه الأجنبي، يزور كن سائي العاصمة القديمة للأسر الحاكمة المخلوعة، وآخر لؤلؤة وضعت في تاج الإمبراطور، وأعاد قبلاي سؤاله لماركو: «هل رأيت مدينة تشبه هذه من قبل؟... »، أجابه ماركو: «كلا يا سيدي، لم أتخيل مدينة ممكنة الوجود مثل هذه... »

حاول الإمبراطور أن ينفذ نظرته في عيني ماركو، فخفض الأجنبي نظره. ظل قبلاي صامتاً طيلة ذلك النهار.

بعد غروب الشمس وعلى مدارج البلاط، شرح للحاكم الكبير نتائج بعثاته، كحاكم، استخلص الخان من رحلة يومه هذه الحكاية بعينين نصف مغمضتين وإلى أن بدرت تثاؤبةٌ منه، وهي علامة لحاشيته أن يوقدوا المشاعل التي تتقدم الإمبراطور إلى سرادق النوم في ليالي آب، لكن قبلاي هذه المرة لم يبدُ راغباً بالاستسلام للتعب، أكد على ماركو: «قص لي حكاية أخرى»....

- تغادر ذلك المكان وتركب لثلاثة أيام بين الشمال الشرقي والشرق برياح شمالية شرقية. وراح ماركو يتذكر، ثم قال معدداً أسماء وعادات

وسلع أراض كثيرة، يمكن وصف ذخيرة ماركو بأنها لا تنفد. ولكنه الآن صار الرجل الذي عليه أن يستسلم.

انكشف الفجر، حين قال، : «سيدي لقد أخبرتك بكل شيء عن المدن التي أعرف..».

«ما تزال هناك مدينة لم تخبرني عنها.»

أحنى ماركو رأسه:

- «البندقية»...

ابتسم ماركو بولو: «عن أي سواها تظنني قد تكلمت؟»

لم يعره الإمبراطور اهتماماً وأكمل قوله السابق: «وحتى إني لم أسمعك تذكر ذلك الاسم... قال ماركو: كلما وصفت مدينة، فأنا أقول شيئاً عن البندقية...».

- «حين أسألك عن مدن أخرى فهذا يعني أني أريد أن أسمع عن تلك المدن، وعن البندقية حين أسألك عن البندقية.».

- «لكي أوضح مزايا المدن الأخرى، علي أن أتكلم عن المدينة الأولى التي هي أبداً واضحة، تلك، بالنسبة لي، هي البندقية»

- «إذن، عليك أن تبدأ كل حكاية من حكايات أسفارك من نقطة ارتحالك، واصفاً البندقية كما هي، كلها، لا تحذف شيئاً مما تتذكره منها.»

تغضن وجه البحيرة، انعكس نحاس بلاط سونج القديم في الماء يتلامع مثل أوراق طافية قال ماركو بولو: «حين تقيد صور الذاكرة بكلمات، فإنها تمحي. وأراني خائفاً من ضياع البندقية كلها مرة واحدة، إذا ما تحدثت عنها. وربما، وأنا أتكلم عن مدن أخرى، سأضيعها شيئاً بعد شيء..».

مدن تجارية ٥

في ازميرالد، مدينة الماء، شبكة من قنوات وشبكة من شوارع تُنْسَجَ معاً، وتتداخل بعضها في بعض وأن تمضي من مكان إلى آخر، فلك الخيار دائماً بين الأرض والزورق، وما دامت أقصر مسافة بين نقطتين في ازميرالد ليست الخط المستقيم ولكن المتعرج الذي يتشعب في دروب تتلوى على رسلها. والدروب التي تفتح لكل عابر ليست أبداً دربين ولكنها دروب كثيرة تزداد أكثر لأولئك الذين يتناوبون شدَ الحبل في الزورق، مع أولئك الذين على اليابسة.

لذا فأهل ازميرالدا في منجى من سأم رؤية الشوارع نفسها كل يوم. وليس هذا كل شيء: البديل هو فترة صعود المدرجات والنزول إلى اليابسة، إلى الجسور المقوسة والشوارع المعلقة تصل بين شظايا الممرات المختلفة العالية أو التي على الأرض، كل واحد من سكانها يتمتع كل يوم بطريق جديد للوصول إلى الأمكنة نفسها، أكثر الحيوات استقراراً وهدوءاً في ازميرالدا، تلك التي تُقضى بلا تكرار. الحيوات السرية والمليئة بالمغامرة، هنا كما في أي مكان، هي التي تواجه حواجز أكبر، قطط ازميرالدا لصوصها، العشاق غير الشرعيين، يتحركون على طرق متقطعة، أكثر ارتفاعاً من سواها، ويهبطون من سطح شرفه، ينحدرون

على الميازيب بحركات اكروباتيـة. في الأسفل تجري الفئران في عتمة المجاري، واحدة وراء الأخرى، معاً والمتآمرين والمهربين: إنهم يتلصصون من «المنهولات» وأنابيب المجاري وينزلقون عبر خنادق ذات قاعين من مَخْفى إلى آخر، يسحبون كسراً من الجبن، بضائع مهربة، براميل صغيرة، من البارود، ويجتازون كثافة المدينة، ينفذون من درجات الممرات تحت الأرض».

خارطة ازميرالد تضمّ كل هذه الطرق، سائلة وصلبة، بيّنةً وخفية، ومعلّمة بالحبر الأحمر، الأمر الأصعب، هو أن تثبت على الخارطة دروب العصافير، والتي تشق طريقها في الهواء، فوق السطوح، وتهبط في ممر تتقاطع معه أجنحتها الساكنة، مَنّقضةً لازدراد بعوضه، ملتفة كالحلزون إلى أعلى تخربش برجاً، وتتسلط من كل النقط في طرقها الهوائية على كل نقاط المدينة.

مدن وعيون ٤

حين تصل فيليس تؤخذ برؤية الجسور على القنوات، كل جسر لا يشبه الجسور الأخرى، مقوسة ومغطاة، على أعمدة أو على مراكب، معلقة ذات درابزينات مزخرفة وشبابيك تطل على الشوارع مقضّبة بأماليد من حجر، بأشكال مغربية، ونوافذ أخرى مستدقة الأقواس مدببة، تعلوها كوى هلاليه أو ورود من زجاج ملون. وكم هي أنواع الأرصفة التي تغطي الأرض هناك: صخر أملس بلاط، حصى، قرميد أزرق وأبيض في كل خطوة تخطوها تدهشك المدينة بمرأى. شجيرة جذلة تطل من وراء جدار مدينة محصنة تماثيل ثلاث ملكات على إفريز، وقبة تصحبها ثلاث قباب صغيرة تحيط ببرج. حينها ستصيح إعجاباً: «هنيئاً لمن تظل فيليس أمام بصره كل يوم. ومن لا يقاطعه شيء عن رؤية ما فيها...».

وتحس بالأسى لأنك غادرت المدينة ولأن مشاهدها خفيت عن عينيك وقد ابتعدت، ويحدث كثيراً أنك تبقى في فيليس بدلاً من أن تغادرها، وتقضي بقية عمرك فيها. وفي حال بقائك سرعان ما تتلاشى المدينة أمام عينيك، النوافذ ذات الورد تختفي، التماثيل على الأفاريز تختفي، وتختفي القباب، ومثل أي من أهل فيليس، تتبع خطوطاً

متعرجة من شارع إلى آخر مميزاً رقاع الشمس من رقاع الظل، باب هنا، سلم هناك، دكة تضع عليها سلتك، حفرة تزل بها قدمك إن غفلت وما بقي في المدينة واضح.

فيليس فراغ تمتد فيه الدروب بين نقاط معلقة في الفضاء، هنالك أقصر طريق يوصلك إلى خيمة تاجر معين، وتتجنب فيه شباك دائن معين، خطواتك فيها لا تتبع ما هو خارج عينيك ولكن مافي داخلها، مدفوناً أو ممحواً. وإذا ما بدا أحد ممرين فوق تلك القناطر أكثر إبهاجاً فذلك لأن فتاةً قبل ثلاثين سنة قد مرت عليه بأكمام واسعة مخرمة، أو لأن ذلك الممر فوق القناطر يلتقط النور في ساعة معينة، وذلك الممر على القناطر يفلت من عينيك ولا تتذكر أين كان. ملايين العيون تنظر للنوافذ وللقناطر، ولشجيرات الأصف كأنها، تفتش عن شيء في صفحة بيضاء. كثيرة هي المدن التي تشبه فيليس والتي تفلت من نظر الجميع، إلا الذي يلتقطها بعينيه صدفةً.

مدن وأسماء ٣

ظلّت بيرها زمناً طويلاً محصنة على منحدرات الخليج، لها نوافذ عالية وأبراج مغلقة مثل كرة، فيها ميدان مركزي عميق كبئر، وبئر في وسط الميدان، أنا لم أرها. هي واحدة من مدن كثيرة لم أ صلها، إنما سحرني اسمها: يوفراسيا اوديل، ماركارا، كيتوليا، بيرها، كل تتخذ مكانها بين تلك، وكل واحدة تختلف عن كل من تلك المدن وتشبه كلاً منها، ولا تخطؤها عين العقل.

جاء اليوم الذي أوصلتني أسفاري فيه إلى بيرها. وحالما وضعت قدمي هناك، نسيت كل ما تصورته من قبل، بيرها صارت كما هي بيرها، وفكرت.. أعرف أن البحر والمدينة واضحان، أو أن المدينة تقبع خلف كتف الساحل الوطيء المتحدر وإن الشوارع طويلة ومستقيمة، والدور ملتمة في فسح غير مرتفعة وتفصلها مسافات مكشوفة وأكوام أخشاب مقطعة ونشّارات تحرك مضخات الماء. من تلك اللحظة صار يلوح هذا المشهد فوق اسم بيرها، هذا الضوء، هذا الأزيز، هذا الهواء الذي يتطاير فيه غبار أصفر: واضح أن الاسم بيرها يعني هذا ولا يمكن أن يعني شيئاً آخر. إن مسرح عقلي يجمع عدداً كبيراً من مدن لم أرها،

ولن أراها يوماً، أسماء تحمل معها هيئة أو قطعة أو وهجاً من شكل تخيلته: كيتوليا، اوديل، يوفراسيا، ماركارا.

المدينة التي ترتفع على الخليج ما تزال هناك أيضاً بميدانها الذي يحيط بالبئر، ولكنني لم أعد قادراً على أن أسميها، ولا أتذكر كيف منحتها من قبل اسماً كان يعني شيئاً مختلفاً تماماً.

مدن والموتى ٢

في كل أسفاري لم أخاطر فأصل مدينة مثل أدلما، كان الوقت أصيلاً حين رسوت هناك، وعلى الرصيف كان البحار الذي أمسك بالحبل وشده بمربط المركب، يشبه الرجل الذي اصطحبني ومات. كان وقت بيع الأسماك بالجملة وكان رجل عجوز يحمل سلة من قنافذ البحر على عربة، أظنني قد ميزته، حين التفت إليه، اختفى في زقاق، ولكنني أدركت أنه يشبه صياد سمك، كان عجوزاً، إذ كنت طفلاً، ولم يعد بين الأحياء. غلبني الهم وأنا أرى حال من أسقطته الحمى على التراب، غطاء على رأسه، نمولحيتي مثل هذا، أبعدت نظري عنه، لم أعد أجرؤ على النظر في وجه أحد.

فكرت: «إذا كانت مدينة قد لاحت لي في حلم، فكيف أواجه موتاها وحدهم؟.. الحلم يرعبني، إن كانت مدينة حقيقية، يسكنها ناس أحياء، فأنا أحتاج فقط للنظر إليهم وسيختفي الشبه، ستظهر وجوه غريبة تحمل همها. في كل الأحوال الأفضل لي دائماً ألا أشدد التحديق فيهم.»

كانت بائعة الخضروات تزن كرنباً وتضعه في سلة أدلتها فتاة من الشرفة بخيط إليها: كانت الفتاة شبيهة واحدةٍ في قريتي جُنَّت حباً وقتلت نفسها، رفعت بائعة الخضار رأسها، كانت جدتي.

فكرت: « لقد وصلت في تلك اللحظة من الحياة التي يبدو، من الناس الذين عرفت، عدد الموتى يغطي عدد الأحياء، والعقل يرفض تقبل وجوه أخرى، أو تفسيرات أخرى. في كل وجه تواجهه ترتسم الأشكال القديمة، وتجعل لكل واحد منهم القناع الذي يلائمه أكثر من غيره... ».

خط من عمال السفن، يتسلقون السلالم، لقد اختفت وجوههم تحت السقيفة والبراميل، اختفت وجوههم في قلانس جلابيبهم. لقد استقاموا الآن وسأميزهم».

فكرت بخوف ونفاد صبر ولكني لم أرفع عيني عنهم، لو أني أدرت نظري قليلاً إلى الزحام الذي ملأ الشوارع الضيقة، لداهمتني وجوه غير متوقعة، تعاود الظهور من زمان بعيد، تحدق إليَّ كما لو كانت تطلب مني التعرف بها، أو التعرف بي، كما لو أنها تعرفت بي الآن. ربما كنت أنا أيضاً، بالنسبة لها أشبه شخصاً آخر مات. لقد وصلت ادلما وكانت واحداً منهم، انتقلت إلى جانبهم، وامتصتني تلك المشكاة من العيون والغضون والتكشيرات.

فكرت: «ربما كانت ادلما المدينة التي تصلها وأنت تموت، أو حيث كل يجد مرةً أخرى الناس الذين تعرف بهم، هذا يعني أني، أيضاً، ميت، فكرت:

هذا يعني أن العالم الآخر غير سعيد.»

مدن والسماء ١

في يودوكسيا ، التي تمتد إلى أعلى وإلى أدنى بأزقة ملتوية، وسلالم وطرق مغلقة النهايات، وزرائب، هنالك سجادة محفوظة. يمكنك أن ترى فيها شكل المدينة الحقيقي. للوهلة الأولى، يبدو تصميم تلك السجادة أقل شبهاً من أي شيء آخر بيود وكسيا.

فهي معروضة بحركات متناسقة تتكرر مقاطعها في خطوط مستقيمة، ودائرية، تتداخل ببراعة في مساحات لونية، تكرار يمكن تتبعه خلال لحمتها كلها ولكن إذا توقفت وتفحصتها بعناية، ستكون مقتنعاً بأن كل مكان فيها يشير إلى مكان في المدينة، وإن كل الأشياء التي تحتويها المدينة قد تضمنتها نقوش تلك السجادة، وقد رتبت حسب صلتها الحقيقية، والتي تفلت من عينيك في خضم الزحام والتدافع والفوضى، يودوكسيا كلها فوضى، البغال تنهق، بقع السناج، رائحة السمك هي الواضحة في المرأى الناقص الذي تلتقطه منها، ولكن السجادة تظهر أن هناك نقطة تكشف المدينة منها أجزاءها الحقيقية، يتجلى منها تصميمها الهندسي ودقائق مضمونها.

سهل أن تضيع في يودوكسيا: لكن عندما تثبت وتحدق في السجادة، تدرك الشارع الذي تبحث عنه بصورة خيط قرمزي، نيلي، أو

أنه خيط مغناطيسي يجتذبك إلى عقدة واسعة إلى موضع أرجواني حوله حدّ واضح، تلك هي منطقتك الحقيقية.

كل واحد من أهل يودوكسيا يقارن نظام السجادة الثابت بصورة المدينة في ذهنه، ذلك هم شخصي، وكل واحد منهم يجد جواباً، هو قصة حياته، أو هو التواءات القدر، سُئِلَ عرّاف عن الصلة الغامضة بين موضوعين جد مختلفين مثل السجادة والمدينة. فأجاب العراف، أحد الموضوعين يمتلك الشكل الذي أعطته الآلهة للسماء ذات النجوم والفلك الذي تجري فيه العوالم، الآخر انعكاس له تقريباً، مثل أي شيء من خلق البشر.

ظل العراف الكاهن زمناً طويلاً مؤمناً بأن العناصر المنسجمة في السجادة من أصل إلهي، وكان يؤول اعتقاده للناس، ما أبدى أحد اعتراضاً على تأويله، لكنك بطريقة مشابهة لهذه تصل إلى نتيجة مناقضة. تلك هي أن خارطة الكون الحقيقية هي مدينة يودوكسيا، كما هي تماماً، بقعة أرضٍ تمددت دون أن تتخذ شكلاً، بشوارع معقوفة ودور تتكئ الواحدة على الأخرى وسط سحابة من غبار ونيران وصرخات في الظلام.

«إذن فرحلتك كانت حقاً رحلة في الذاكرة!» ، قال الخان العظيم وقد جلس يرهف السمع بانتباه جاد وهو يلتقط لحظة أسى في كلام ماركو، وقال بعجب: «لقد أوغلت في الابتعاد لتتخلص من عبء الحنين، وقد عدت من أسفارك بمركب من أحزان!»، ثم أضاف ساخراً: «هذه، إذا أردت الحقيقة، مشتريات صغيرة بالنسبة لتجار سيرنيسا»!..

كان هذا غرض قبلاي من أسئلته لماركو عن الماضي والمستقبل. ظل ساعة كاملة يسلي نفسه به مثل قطة تلتذ بجرذ، وأخيراً هجم على ماركو، طرحه ورأسه إلى الحائط، وضع ركبته فوق صدر ماركو: «أنت، أنت، اعترف بما تخفيه، بما فيك من مشاعر، نِعَمٍ؟ أو مراثٍ!».

ربما كانت هذه الكلمات والأفعال مجرد خيالات مرت بينما هما صامتان وبلا حراك، يراقبان الدخان يتصاعد بطيئاً من غليونيهما. السحابة تختفي أحياناً إثر هبة ريح، أو تظل متدلية في سكون الهواء، والجواب في تلك السحابة.

وحين أزاحت هبة ريح الدخان، فكر ماركو بالضباب الذي يغطي مدن البحر وسلاسل الجبال، والذي حين يذوب يترك الهواء جافاً وشفّافاً يكشف عن مدن نائية، إن بصره يتمنى الوصول إلى تلك المدن وراء ذلك الستار من الحوادث والسخريات، لكن شكل الأشياء يمكن أن يبدو أفضل من بعد، كما أن السحابة التي كانت متعلقة قد هطلت فهي تكاد تمس الشفتين، رطبةً وبطيئةً، وتشير إلى رؤيا أخرى: نفخة الدخان المسود الذي لم ينتشر وغشاوة البخار على قير الشوارع. ليس ذلك ضباب

الذاكرة المتغير الناشف الشفاف، بل هي حيوات متفحمة محروقة تشكل قشرة سوداء فوق المدينة. الإسفنجة مشبعة بمادة حية لم تعد تجري، العصارة الكثيفة للماضي والحاضر والمستقبل تشكل كيانات مرتبة في فوضى الحركة: هذا ما سوف تجده في آخر الرحلة.

V

قبلاي: لا أعرف متى امتلكت كل هذا الوقت حتى زرت كل البلدان التي وصفتها لي. يبدو لي أنك لم تبرح هذي الحديقة.

بولو: كل شيء أراه وأفعله يحقق معناه في فضاء عقلي حيث يحكم الهواء، مثلما في هذا المكان، الظل والصمت الذي يقطعه خفيف الورق، ذلك الصمت نفسه. في اللحظة التي يتركز فيها انتباهي وانعكس، أجد نفسي مرة ثانية، ودائماً، في هذه الحديقة في هذه الساعة المسائية، في حضرة جلالتك.

وهكذا أنا، استمر دون لحظة توقّف، أتحرك في نهر يخضّر من تماسيحه، أو أحصي براميل السمك المملّح وهي تدلى إلى مخزن المؤن.

قبلاي: أنا أيضاً غير متأكد من وجودي هنا، فأنا أجري بين الينابيع الرخامية، أصغي إلى أصداء تدفقّات الماء، أو أني مترجّل مغطى بالعرق والدم على رأس جيش اقتحم الأقاليم التي تصفها، أقطع أكفّ الأعداء المهاجمين، مكتسحاً أسوار الحصون.

بولو: ربما تكون هذي الحديقة فقط في ظل أجفاننا المطبقة، ولم نتوقف لا أنت من إثارة الغبار في ميادين المعارك، ولا أنا من المقايضة لحمل أكياس الفلفل للأسواق البعيدة. ولكننا في كل وقت نغمض أعيننا نصف إغماض في وسط الضجيج والزحام، نرتدي الثياب الحريرية، لنتفكّر فيما نراه ونعيشه، لنستخلص النتائج، نتأمل عن بعد.

قبلاي: ربما كان حوارنا هذا يجري بين شحاذَيْن يدعيان قبلاي خان وماركو بولو، بينما هما ينخلان كوم قمامة، فيخرجان القطع الصدئة، الخرق والورق المهمل، وقد سكرا بجرعات من الخمر الرديء، فهما يريان كل كنوز الشرق تشع حولهما.

بولو: لعل كل ما بقي من العالم هو أرض يباب، تغطيها أكوام النفايات، أو الحديقة المعلقة لبلاط الخان. إنها أجفاننا التي تفصل بينهما، ولكننا لا نستطيع معرفة أيهما داخل أجفاننا وأيهما خارجهما.

مدن وعيون ٥

حينما تجتاز النهر، وحين تعبر الممرّ الجبلي، تفاجؤك مدينة موريانا، بواباتها المرمرية تلتمع في الشمس، أعمدتها المرجانية تسند القواصر المطعمة بالحجر الأخضر.

كل فِلَلِها من زجاج، كأحواض سمك، تنعكس عليها ظلال فتيات يرقصن برقاق فضيّة تحت ثريات بأشكال قناديل البحر.

إن لم تكن هذه رحلتك الأولى، فستعرف في الحال أن مدناً مثل هذه لها وجه آخر:

وستأتي إلى منظر الوجه المخفيّ لموريانا، امتداد لرقعة من معدن صديء، ألواح خشب مثبتة بمسامير كبيرة الرؤوس. ، أنابيب سوّدها السخام، ركام علب صفيح صغيرة، جدران بلا نوافذ عليها علائم ممحوّة، أطُرٌ لمقاعد محشوّة بالتبن، حبال تصلح فقط لأن يشنق الإنسان بها نفسه متدلياً من عارضة متآكلة.

من قسم إلى آخر يبدو لك أن المدينة ستستمر في كشف ذخيرتها من الصور المجسمة المتزايدة، لكنها بدلاً من ذلك تظل غير كثيفة وأنها تتكون فقط من وجه ظاهر ووجه آخر خفي مثل قطعة من ورق، لا يستطيع أيٌّ من وجهيها أن يبتعد عن الآخر، وأيضاً لا يستطيع النظر إليه.

مدن وأسماء ٤

كالاريس المدينة المجيدة، قد عصيت على التاريخ مرات عديدة، تندثر ثم تنهض من جديد، وفي كل مرة تحتفظ بكالاريس الأولى كأنوذج باذخ لحاضرها وإذا قورن لك بحال المدينة اليوم، فإنه يبعث الحسرة على كل نجم تلاشى من نجومها.

في قرون دمارها، وقد أخلاها من أهلها الطاعون، يتضاءل ارتفاعها، تنقص منه انهيارات عوارضها وأفاريزها. وبسبب تبدلات تضاريسها، صدئت، وتوقفت الحياة فيها من أزمنة هجرانها أو افتقاد الناس الذين يرعونها. المدينة شيئاً فشيئاً، امتلأت بالسكان مرة أخرى كما لو أنهم كانوا باقين فيها فتدفقوا من سراديبها وملاجئها حشوداً يتراكضون مثل الجرذان تدفعهم نار حماستهم للبحث والقرض وكذا للجمع والترميم مثل طيور تبني أعشاشاً، إنهم يلتقطون. كل شيء يمكن نقله من مكان ويضعونه في مكان آخر ليخدم غرضاً مختلفاً: الستائر المقصّبة تقصّر وتعلّق قطعاً، وفي جرار رماد الموتى المرمرية يزرعون الريحان، ويجعلون من الحديد المزخرف حاملات وقود: يشوون عليها لحم القطط، على نار من خشب الزينة المطعم ضع كل هذه مع القطع الغريبة من بقايا كالاريس المهملة، ومعها كل الأكواخ والزرائب والمجاري المهدمة وأقفاص الأرانب، وستمتلك كلاريس اليوم شكلها.

ولعلنا الآن لا نفتقد شيئاً من كلاريس الباذخة الأولى. هي موجودة كلها، إنما هي مرتبة بنظام آخر، ليس أقل ملاءمة لسكنتها من الذي كان قبلها.

أيام البؤس أعقبتها أزمنة مبهجة: الفيض الجديد جعل المدينة تزدحم بمواد جديدة، بنايات وأشياء، بشر جديد ينهال عليها من خارجها، لا شيء، لاأحد له صلة بكلاريس أو بالكلاريسات السابقة، وكلما استقرت المدينة أكثر، منتصرة في موقع واسم كلاريس الأولى، كلما أدركت أكثر أنها كانت تتحرك مبتعدة عنها، وبالرغم من فخرها بثرواتها الجديدة، ففي قلبها شعور بأنها مناقضة لنفسها الأخرى وبعيدة عنها ومغتصبة لمكانها. ثم أن الكسر المتبقية من تلك الأصيلة الفخمة، والتي أُنْقِذَتْ وحُفِظَتْ بدافع حاجات غامضةٍ قد تغيّرت مرة أخرى.

فقد حفظت أسفل أجراس زجاجية فوقها واجهات عرضٍ مقفلة وقد وضعت على وثار من قطيفة، ليس ذلك لأنهم سيستعملونها لغرض من أغراضهم، ولكن الناس أرادوا أن يشيدوا من خلالها مدينة لا يعرف أحد عنها اليوم شيئاً.

أكثر تلفاً وأكثر ازدهاراً، هكذا تتوالى الأحوال في كلاريس، إحصاءات السكان والضرائب تغيرت مرات عديدة، الاسم، الموقع، والأشياء صعبة الكسر، هي التي بقيت، كل كلاريس جديدة تتصل مثل جسد حي، بروائحها وأنفاسها القديمة، كسراً وموتى.

لا علم لأحد متى ارتفعت التيجان الكورنيثية على رؤوس أعمدتها: إلا أن واحداً من أهلها قيل إنه شوهد منذ سنين عديدة، وأثناء ركضه وراء دجاجة، رأى ذلك التاج يسند السلة التي تضع

الدجاجات بيضها فيها، ومن هناك نُقل هذا التاج إلى متحف التيجان، ووضع في صف واحد من عينّات أخرى.

لقد ضاع خط تاريخ المدينة، فإن أول كلاريس وجدت كانت اعتقاداً واسع الانتشار بها، دون أية براهين تؤكد وجودها. وإن تيجان الأعمدة هذه يمكن أن تكون قد وجدت في ركض الدجاج قبل أن توجد في المعابد، ويحتمل أن تكون جرار رماد الموتى الرخامية قد زرعت بالريحان قبل أن تملأ بعظام الموتى. المؤكدة معرفته هو:

إن عدد الأشياء يتغير حسب الفراغ الذي يحدد لها، في أحيان أخرى يزداد بنوعٍ جديد من الأشياء يضاف إليه. أحياناً تتلف أشياء ولا يحل بديل محلها، القاعدة هي أن تخلط الأشياء في كل وقت، ثم تحاول عدّها من جديد.

ربما كانت كلاريس دائماً مجرد خليط لكسر وشظايا غير متجانسة أبداً.

مدن والموتى ٣

لا مدينة تزيد على يوسوبيا في ميلها للتمتع بالحياة والهرب من الهم، ولكي يجعلوا القفزة من الحياة للموت أخف أثراً، فقد أقام السكان نسخة مماثلة لمدينتهم تحت الأرض. كل الجثث التي تجف بهذه الطريقة تظل هياكل مغلّفة بجلد أصفر، تحمل إلى تلك المدينة، وتستمر بمواصلة أعمالها الأولى، ومن بين هذه الأعمال لحظات إراحة البال التي تتخذ المكان الأول في حياتهم.

فأكثر الجثث هناك تُجْلس على مقاعد حول موائد من رصاص، أو توضع في هيئات راقصة أو تُثبّتْ متخذة هيئات عازفي بوق، ولكن كل التجارات ومهن كسب الرزق، تظل هي الأخرى جارية في يوسوبيا تحت الأرض، أو في الأقل تلك التي تتطلبها مواصلة العيش هناك.

فالناس هناك، يغلب عليهم الرضا أكثر من الإثارة، صانع الساعات بين كل ساعات مخازنه المتوقفة، يضع صفحة أذنه على ساعة جده متلاشية الصوت، حلاق بفرشاة ناشفة يمسح عظام وجنتي ممثل يتعلم دوره، يدرس في وَقْب كبير الجوف، فتاة بجمجمة ضاحكة تحلب جثة بقرة صغيرة.

ولكي نتأكد من أن الكثيرين من الأحياء يريدون لهم مصيراً بعد

الموت مختلفاً من ذلك الذي لهم في الحياة، فإن مدينة الموتى مزدحمة بمتصيدي اللعب الكبيرة، برجال البورصة وعازفي الكمان ودوقات وقضاة وجنرالات أكثر مما تحتويه مدينة الأحياء.

مهنة صحبة الموتى تحت الأرض وتغيير أمكنتهم تعهد إلى جمعية «الأخوة ذوي القلانس»، لا أحد سواهم يسمح لهم بالدخول إلى يسوبيا الموتى، وكل شيء عرف عن هذه المدينة، عُرف عن طريق هؤلاء.

يقولون : إن الجمعية نفسها توجد بين الموتى وهي لا تخفق في تقديم يد العون، الأخوة ذوو القلانس، بعد موتهم سيمثلون الدور نفسه في يوسوبيا الأخرى، يُشاع عن البعض الذين ماتوا إنهم استمروا على الصعود من مدينتهم إلى فوق والنزول إليها. على أية حال، نفوذ أفراد الجمعية هذه كان واسعاً في يوسوبيا الأحياء.

يقولون إنهم في كل مرة ينزلون فيها تحت الأرض، يجدون شيئاً قد تغير في يوسوبيا السفلى، الموتى ينجزون تجديدات في مدينتهم، هذه التغييرات ليست كثيرة، لكن ما هو أكيد، إنها ثمرة التفكير الرصين لا النزوات العابرة. من سنة إلى أخرى، يقولون، تحول يسوبيا مدينة غير مدركة. ولكي يظل الأحياء مع الموتى، فهم يعملون أيٌّ شيء يقوله لهم الأخوة ذوو القلانس من بدع وغرائب الموتى. لذا فيوسوبيا الأحياء صارت تستنسخ صورتها تحت الأرض.

يقولون إن هذا لم يبدأ حدوثه الآن، والحقيقة هي أن الموتى هم الذين شادوا يوسوبيا العليا على صورة مدينتهم. يقولون إن في المدينتين التوأمين لم يعد أحد يعرف من هي المدينة الحيّة ومن منهما الميتة.

مدن والسماء ٢

هذا المعتقديسود في بيروشيبا «بئر سبع»، هنالك في السماء بيرشيبا أخرى، تستقر فيها الفضائل السامية للمدينة ورغابها، وإن بيرشيبا الأرضية تتخذ من تلك السماوية مثالاً لها، وإن المدينتين سيكونان يوماً مدينة واحدة.

الصورة المتوارثة عنها، إنها مدينة الذهب الخالص، بأقفال من فضة وبوابات من الماس، إنها مدينة الجواهر، مدرّجة ومطعمة؟ لقد أنتج أقصى الجهد أقصى الثروة فيها. ولصدق إيمانهم هذا، كان سكان بيرشيبا يحتفون بكل شيء يشير إلى المدينة السماوية، فهم يجمعون المعادن الثمينة والأحجار الكريمة، لقد تركوا كل إسراف في لهوٍ زائل وطوروا أشكالاً من الانسجام الهادئ.

إن أولاد السكان كذلك يعتقدون بأن بيرشيبا أخرى توجد تحت الأرض، هي مقر كل شيء لا قيمة له، وإن همهم الدائم هو أن يمحوا من بيرشيبا كل صلة أو شبه بالتوأم السفلي فتصوروا المدينة تحت الأرض صناديق قمامة مقلوبة بدل طوابقها: قطع جبن، ورق زَلِق دهني، موازين سمك، غسيل صحون، سباجتي لم يؤكل، ضمادات قديمة متدلية. وحتى إن مادتها معتمة كثيفة لينة، ومثل صوت ينسكب من المجاري، يمر

طريق الآنية البشرية من حفرةٍ سوداء إلى حفرة سوداء أخرى حتى تتدفق مقابل أدنى طابق تحت أرضيّ، ومن تلك الفقاعات المتراخية المستديرة في الأسفل، طبقة فوق طبقة ترتفع مدينة من الفضلات بأبراج متثنيّة.

في معتقد بيرشيبا هذا عنصر حقيقة وعنصر خطأ. صحيح أن المدينة يصحبها تصوران عن نفسها، واحد سماوي وآخر جهنمي، ولكن أهل المدينة مخطئون في قناعتهم. فما يعشش في أعمق طبقة من أرض بيرشيبا هو مدينة صممها أعظم مهندسي العمارة المتنفذين، وشيدت بأغلى المواد الموجودة في السوق، بكل الوسائل والمكائن وأجهزة الدعم والتعشيق وثُبّتت بدعائم وأواصر، ولها حافات تبرز من جميع الأنابيب والروافع، والمدينة في كل هذا منكبة دائبة على تكديس قراريط كمالها. كانت بيرشيبا تأخذ، حباً للفضيلة، ماهو الآن جنون وحشي لتملأ به إناءً فارغاً في نفسها، المدينة لا تعرف أن لحظات متعتها المجيدة الوحيدة هي تلك التي تتحرر فيها من نفسها وتمتد...

ما يزال فلك بيرشيبا جسماً سماوياً يشع بكل جواهر المدينة، وقد أحاط به جمعُ الأشياء المنبوذة... قشارة بطاطا، مظلات محطمة، جوارب قديمة، أغلفة علك، تذاكر ترام، مقارض أظافر، موادمتصلبة متشابهة الحجوم وقشور بيض.

هذه هي المدينة السماوية وفي مذنبها الطويل يعلق الماضي سائباً، يرتعد في الفضاء في ذلك الفعل الحر والبهيج لمواطني بيرشيبا، المدينة التي لا تكون تعيسة وجشعة وماكرة إلا في اللحظات التي تتخلص من فضلاتها.

مدن مستمرة ١

مدينة ليونيا تجدد طرازها كل يوم: في كل صباح يستيقظ الناس بين فرشٍ نظيفة، مغسولة بصابون جديد لم يُغلّف بعد، يرتدون ملابس جديدة، يتناولون من آخر طراز من الثلاجات علباً لم تفتح بعد، يصغون إلى أغنيات آخر لحظة من مذياع طرازِ يومه.

على الممرات الجانبية، بقايا ليونيا معبأة بأكياس تنتظر شاحنة النفايات. نفاياتها ليست أنابيب معجون الأسنان المبَعّجة، والمصابيح المحترقة، والصحف وشتات الحلويات والأغلفة حسب. لكنها أيضاً أجهزة الغلي والانسكلوبيديات والبيانوهات وأطباق العشاء من الخزف الصيني. إنها ليست غنية أو كبيرة بتلك الأشياء التي تصنع يومياً، وتباع والتي يمكن أن تقيس بها ثروة ليونيا، ولكن بتلك الأشياء التي ترمى كل يوم لتخلى غرفة للأشياء الجديدة. وهنا يبدأ عجبك من مباهج ليونيا الحقيقية، هل هي بالتمتع بالأشياء الجديدة والمختلفة. أم هي بدلاً من ذلك بالفرح في نبذ وطرح المخلفات وتطهير نفسها من التلوث واللانقاء؟ الحقيقة هي أن منظفي الشوارع يُرحب بهم مثلما يرحب بالملائكة ويحاط واجبهم، إزاحة وجود الأمس، بصمت وإجلال مثل طقس ديني يوحي بالتقوى، ربما كان سر ذلك هو أن الأشياء التي تُرمى، لن يفكر بها أحد بعدِ ذلك.

لا أحد يتساءل إلى أين يحملون مرفوضاتهم كل يوم، خارج المدينة حتماً، ولكن المدينة في كل سنة تتسع وتمتد، فيكون على منظفي الشوارع التراجع أكثر. حجم هذا الفائض يزداد والأحمال ترتفع وتكبر، تصير طبقات تمتد على مساحة واسعة، إضافة لذلك، كلما زادت قدرة ليونيا لصنع مواد جديدة، كلما تحسن نوع القمامة من حيث مقاومتها للزمن، ومن حيث عناصرها، ومن حيث التخمر والاحتراق. البقايا العصيّة على التلف تحيط ليونيا، تحميها من كل جانب سلسلة من جبال.

هذه هي النتيجة، كلما أنتجت ليونيا بضاعةً أكثر، كلما زادت أكداسها، ميزان الماضي ملتحم بدرعٍ لا يمكن زحزحته، وبينما تتجدد المدينة كل يوم، فهي تصون كلٌ نفسها وتحتفظ بها في شكلها الثابت الوحيد: ماكِنس أمس يتكوّم فوق فضلات اليوم الذي قبله وعلى كل أيامها وسنوات عقودها التي انصرمت.

قمامة ليونيا سوف تغزو العالم إذا لم يخترق منظفو شوارع المدن الأخرى، ويمرّوا من خلال القشرة الأخيرة لأكوام أزبالها التي لا حدود لها، وهم يدفعون جبال القمامة أمامهم، قد يكون العالم كله، وراء حدود ليونيا، مغطى الآن بحفر كبيرة للأزبال، كل واحدة تحيط بعاصمة، والعاصمة من ورائها في هياج دائم.

وإن الحدود بين المدن القريبة المعادية هي متاريس، كسر الحصى في هذا الجانب تسند كسر الحصى في الجانب الآخر، تقفز إليها وتختلط بها.

كلما زاد ارتفاعها، كلما صار أكبر خطر انهيار تلك الأشكال، علب صغيرة، أُطرٌ قديمة قناني خمر لم تفتح، وهذه إذا تدحرجت باتجاه ليونيا،

ستسحب معها كومة من فردات الأحذية، تقاويم سنوات ماضية، أزهار ذابلة، وتُغْمَرُ المدينة بماضيها الخاص الذي حاولت سدى التخلص منه، مختلطاً بماضي المدن المجاورة الذي ما يزال نظيفاً بالنسبة لماضيها، إن زلزالاً سيسوّي سلسلة الجبال القذرة، ماحياً كل أثرٍ من المدينة التي ترتدي دائماً ثياباً جديدة.

في المدن القريبة، يقف المنظفون مستعدين دائماً، ينتظرون ببلدوزراتهم لتسوية الأكوام ليدفعوها إلى مناطق جديدة، يوسعون المدينة يرفعون أكوامها، فيسير منظفو الشوارع الجديدة إلى مناطق أبعد.

بولو : لعل صفوف المنازل لا تطل إلا على بحيرة عقلنا .

قبلاي: ومهما نأت المداخل التي يأخذنا إليها المحاربون أو التجار فنحن نرسو مع أنفسنا في ذلك الظل الصامت، ذلك الحوار في أوقات السكون، هذا المساء الذي هو دائماً المادة نفسها .

بولو: إن لم يكن الافتراض المضاد صحيحاً ، إن أولئك الذين يسعون في المخيمات والموانئ يوجدون فقط لأننا نحن الاثنين نفكر فيهم هنا ، وقد أطبقت عليهم أسيجة البامبو التي لا حراك لها منذ ابتدأ الزمان.

قبلاي خان: إن لم يكن هناك كدحٌ، صرخات وأوجاع، لما وجد النتن، ولن يكون هناك غير شجرة الأزالية.

بولو: لو لم يكن عتالون، قاطعو صخور ـ جامعو نفايات طباخون ينظفون مصابيح المطابخ، نساء غسالات ينحنين على الحصى، أمهات يقلبن الرز وهن يرضعن أطفالهن، لو لم يوجد هؤلاء، ولكنهم يوجدون فقط لأننا نفكر بهم.

قبلاي : للحقيقة، أنا لا أفكر بهم.

بولو: إذن هم غير موجودين.

قبلاي: بالنسبة لي، لا أدري هذا الحدس يلائم مقاصدنا بدونهم، لا يمكن أن نظل نتأرجح هنا ، مصانين في أراجيحنا الشبكية.

بولو: إذن، وجب تنفيذ هذا الافتراض، ويكون الافتراض. الثاني هو الصحيح: هم الذين يوجدون ونحن لا .

قبلاي: لو كنا هنا ، لأثبتنا ذلك، ولكننا لم نكن.

بولو: ولكننا في الحقيقة هنا .

٨

من أسفل عرش الخان العظيم يمتدّ ممشى من القرميد المزخرف المطلي بالميناء، ماركو بولو راوي الأخبار البعيدة، نشر على ذلك الممشى نماذج من السلع التي عاد بها من رحلته إلى أطراف الإمبراطورية:

درع، صدفة بحرية، جوزة هند، مروحة... ورتّب أشياءه بنظام خاص على خطوط القرميد الأبيض والأسود. وهو يحركها، يزيحها خطفاً في الوقت المناسب، بحركات متقنة، محاولاً أن يصور للإمبراطور بذلك، تعاقب أسفاره ، أحوال الإمبراطورية وامتيازات المتنفذين في الأقاليم النائية.

كان قبلاي لاعب شطرنج بارع، فتابع حركات ماركو ولاحظ قطعاً معدنية تدنو، أو تبعد عما يجاورها من القطع الأخرى، وأنها كانت تتحرك على خطوط معينة دون اهتمام باختلاف أشكالها. استطاع أن يلحظ تغيير مكان الواحدة منها باحترام وانتقالها إلى مكان الأخرى على ذلك المرمر.

فكّر: «إذا كانت كل مدينة تشبه لعبة شطرنج، فإن اليوم الذي أتعلم فيه قواعد اللعب، سيكون اليوم الذي أمتلك فيه إمبراطوريتي، حتى لو لم أنجح في معرفة كل المدن التي فيها.».

عملياً، لم يكن مما يسند أقوال ماركو أن يستعين بكل هذه التحف، فلوحة الشطرنج ستكفي بقطعها المميزة، عليهم أن يعطوا لكل قطعة معنى ملائماً: فارس يقف ليدل على فارس حقيقي أو على سلسلة عربات، أو جيش في مسير، أو نصب تذكاري لفارس الملكة يمكن أن تكون سيدة تنظر من شرفتها إلى أسفل فترى نافورة. كنيسة ذات قبّة مدبّبة وشجرة سفرجل... وهو يعود من مهمته الأخيرة، وجد ماركو بولو الخان ينتظره جالساً إلى رقعة شطرنج.

وبإشارة منه دعا فتى البندقية ليجلس قبالته ويصف برجال الشطرنج فقط المدن التي زارها.

ظل ماركو ثابت الجنان، رجال شطرنج الخان كانوا قطعاً ضخاماً من العاج الصقيل.

غيّر، على اللوح، مواقع الرخوخ الضخمة والفرسان العابسين، يجمع أسراباً من البيادق، يسحبها باستقامة أو خلال طرق منحنية تمثل حركة تقدم الملكة، ماركو أعاد خلق الملامح ومساحات الأبيض والأسود في الليالي المقمرة.

وهو يتأمل الضواحي المكشوفة، تبيّن قبلاي ذلك النظام الواضح الذي يسند تلك المدن والقوانين التي تقرّر كيف تنشأ، وتتخذ شكلاً، وتزدهر، وتكيف نفسها على وفق المواسم، من ثم كيف تكتئب وتهوي خرائباً.

أحياناً يفكر أنه يوشك أن يكتشف نظاماً متكاملاً ومنسجماً وراء العيوب والخلافات التي لا تنتهي، إنما ليس هناك أنموذج يمكن مقارنته بلعبة الشطرنج، ربما، وبدلاً من أن يعصر رأسه كي يتذكر أبدت له قطع العاج عوناً قليلاً، فأبانت له الرؤى التي لفّها النسيان.

هي تكفي لإتمام لعبة حسب أصول اللعب، وباعتبار كل ولاية متقدمة على اللوح واحدة من الأشكال التي لا حصر لها والتي يجمعها النظام ويحطمها.

لن يرسل الخان ماركو بولو بعد الآن إلى أماكن نائية: احتفظ به يلعب لعبات شطرنج لا تنتهي. معرفة الإمبراطورية مخفية في المجال الذي يرسمه الخط المنكسر، مخفية في المجال لحركات الفارس والطرق

القطرية التي تفتحها هجمات الفيل، وفي التقدم البطيء الحذر للملك والبيدق الرهينة، وفي الصعدات والنزلات الشديدة في كل لعبة.

حاول الخان العظيم أن يركز على اللعبة: ولكن غرض اللعبة هو ما يزوغ عنه الآن: كل لعبة تنتهي بربح أو خسارة، ولكن ربح وخسارة ماذا؟ ما هي الثوابت الحقيقية؟ في كل ميتة تحت قدمي الملك، يطرح الضحية جانباً بحركات الرابح ويظل هنالك مربع أسود أو أبيض، وبتجريد غزواته وتقليلها إلى ما هو أساسي، يصل قبلاي خان العملية القصوى، الغزوة النهائية التي تبدو فيها كنوز الإمبراطورية متعددة الأشكال مجرّد أغلفة خادعة، لقد تضاءلت حدٌّ أنها صارت مربعاً من خشب مستوٍ، صارت إلى لا شيء...

مدن وأسماء ٥

إيرين. المدينة التي تتضح لك إذا نظرت من حافة الهضبة ساعة تُوقَدُ الأضواء فترى في الهواء الرطب لون الاستقرار الوردي منتشراً في كل المساحة التي تمتد أسفل الهضبة، هنالك النوافذ أكثر إحكاماً، حيث تشفُّ في الممرات المضاءة التي تشوبها عتمة، حيث تجتمع ظلال الحدائق وحيف ترتفع أبراج بعلائم من نار، وإذا كان المساء مُضبّاً، فإن ضوءاً رجراجاً يكبر كإسفنجة أسفل الأخاديد.

المسافرون على الهضبة، رعاة يدفعون قطعانهم، صيادو طيور يرقبون الأعشاش، نُسّاك يجمعون الأعشاب ويلتقطون ثماراً لم تنضج.

الجميع يرنون إلى أسفل، يتحدثون عن إيرين، أحياناً تجلب الريح أصوات موسيقى، طبولاً نحاسية وأبواق، وطبول النحاس والأبواق تتفجر مفرقعات نارية عبر أضواء الاحتفال، في بعض الأوقات يتوالى رشق البنادق فيتفجر مخزن بارود أصفر في حرب أهلية وأولئك يطلون من الأعالي يتساءلون عما يحدث في المدينة، ولا يدرون أممّاً يسرُّ أو مما لا يسر أن يكون المرء في إيرين ذلك المساء. هذا لا يعني أنَ لديهم أية فكرة للذهاب هناك. فالطرق الملتوية المنحدرة إلى الوادي، هي في كل أحوالها سيئة، لكن إيرين مغناطيس يجذب عيون وأفكار الذين يظلون في الأعالي.

عند هذه النقطة كان قبلاي خان يتوقع أن يقول ماركو شيئاً عن إيرين مثلما تُرى من داخلها. لكن ماركو لم يستطع ذلك، لم ينجح في اكتشاف أيها هي المدينة التي يسميها أهل الهضبة إيرين، وليس ذلك الأمر مهماً كثيراً، فحيثما تنظر لإيرين، وأنت في وسطها ستبدو مدينة مختلفة، إيرين اسم لمدينة في البعيد، أن تصلها تتغيّرْ.

بالنسبة لأولئك الذين يمرون بها دون أن يدخلوها هي مدينة معينة، وهي مدينة أخرى بالنسبة لمن اصطادتهم شبكتها فلم يغادروها، هنالك المدينة التي تصلها للمرة الأولى، وهنالك مدينة أخرى هي تلك التي تغادرها ولن تعود إليها. كلٌّ تستحق اسماً مختلفاً، ربما أنا الآخر قد تكلمت عن إيرين تحت أسماء أخرى، وربما كان كلامي كله عن إيرين لا سواها.

مدن والموتى ٤

ما يجعل ارجيا مختلفة عن المدن الأخرى هو أن فيها تراباً بدلاً من الهواء، الشوارع ممتلئة تماماً بالقذارة، الطين يغلف الغرف حتى السقوف، فوق كل سلّم سلّم آخر يخالفه، فوق سطوح الدور تعلق طبقات من التضاريس الصخرية مثل سماوات ذات غيوم. نحن لا ندري إن كان سكنتها يقدرون على التجوال في المدينة عبر القنوات الدائمة والشروخ، حيث تلتوي الجذور: الرطوبة أتلفت أجساد الناس فاقتقدوا قواهم، وإن كان خيراً لكل واحد إلاّ يظل ساكناً منكفئاً: أن يتحرك قليلاً، ولكن المدينة مظلمة على كل حال.

من أعلى هذا المكان، لا ترى قطعة أرض. البعض يقول: «إن المدينة هناك في الأسفل.» ولا يسعنا إلا تصديقهم. المكان مهجور في الليل، تضع أذنك على الأرض، فتسمع أحياناً صفقة باب يُغلق...

مدن والسماء ٣

أولئك الذين يصلون يرون القليل من المدينة من وراء الأسيجة الخشبية، وسُتُرِ الخيش والسقالات والواقيات المعدنية والقناطر الخشبية التي تتدلى بحبال أو المسندة بركائز ، ومن وراء كثير من السلالم والحوامل الخشبية.

إذا سألت: «لماذا استغرق بناء ثكلا كل هذا الزمن الطويل؟..» وبينما يستمر سكانها على تحريك روافعهم يصعدون مساحات من الخيش وينزلون أسلاك رصاص، يحركون فرشاً طويلة عالياً سافلاً، يجيء جواب السؤال.

«لكي لا يبدأ خرابها...»، وإذا سألت إذا ما كانوا يخشون ذلك، نقلت سقالة وكادت المدينة تنكمش وتهوي قطعاً، وقد أضافوا بسرعة وبهمس: «ليس المدينة وحدها.»

إذا لم تقتنع بالجواب، يضع أحدهم عينه على شق في السياج، فيرى ساحبات أخرى، سقالة تعانق سقالة أخرى، أشعة تؤازر أشعة، وتسأل:

«أي معنى للخراب عندكم؟..»

ـ «أي غاية لمدينة مهددة بالخراب غير أن تكون مدينة؟»

ـ «ماهي الخطة التي يتّبعُها، مخطط تصميمها؟» فيجيبون:
«سنريكها حالما ينتهي نهار العمل، لا نستطيع إرباك عملنا الآن...»

يتوقف العمل في الغروب. يهبط الظلام فوق موقع البناء، فيشيرون إلى مكان المدينة وفوقه السماء مليئة بالنجوم: «ذلك هو مخطط تصميمها..»

مدن مستمرة ٢

لو لم أقرأ اسم ترود مكتوباً على أوراق كبيرة حين وصلت إليها، لظننت أني أهبط في المكان الذي أقلعت منه، الضواحي التي عبروا بي خلالها لا تختلف عن الأخرى وفيها البيوت ذاتها تلك المخضرة والصُفر، اتبع العلامات نفسها.

نميد حول منابت الزهر نفسها وفي الميدان نفسه، شوارع مركز المدينة تعرض البضائع، الرزم، تلك علائم لا تتغير أبداً.

هذه هي المرة الأولى التي أجيء بها إلى ترود، ولكنني قد عرفت الفندق الذي ينبغي أن أحلَّ فيه، وقد سمعت وتحدثت مع باعة ومشتري العُدَدِ، قضيت أياماً أخرى مماثلة، انظر خلال الأقداح نفسها إلى تلك النقاط التي وسط قيعانها.

«لماذا جئت إلى ترود؟» سألت نفسي وأردت أن أغادرها.

فقالوا لي:

«يمكنك أن تعاود إرتحالك متى شئت، ولكن ستصل ترود أخرى مشابهة تماماً كل تفاصيلها مثل هذي التفاصيل، العالم تغطيه ترود واحدة لا تبدأ ولا تنتهي. الذي يتغير فقط هو اسم المكان....»

مدن مخفية ١

في أولندا، إذا ما مضيت بعدسة مكبرة، ورحت تصطاد بأناة، فقد ترى في مكان ما نقطةً ليست أكبر من رأس دبوس، إذا ما نظرت إليها بلطف راحت تكبر حتى تتكشف داخلها السطوح، الهوائيات، نور السماء، الحدائق، البحيرات، الجداول تتقاطع وشوارعها، الأكشاك في الميادين وخطوط سباق الخيل. تلك النقطة لا تستقر هناك، بعد سنة تجدها بحجم نصف ليمونة، ثم بحجم فطرةٍ، ثم بحجم صحن حساء، ثم تصبح بحجم مدينة كاملة مطبقة عليها المدينة الأولى، مدينة جديدة تشقُّ طريقها قدماً في المدينة الأولى وتدفعها إلى الخارج.

أولندا ليست المدينة الوحيدة التي تنمو في دوائر واحدة المركز، مثل جذع شجرة، كل سنة تضاف عليه حلقة جديدة.

لكن في مدن أخرى، يظل في المركز النطاق القديم الضيّق من الجدران والذي تنبثق منه رؤوس الأبراج، القلاع، السطوح المغطاة بالقرميد، القباب، بينما المناطق الأخرى الجديدة تنبسط حولها مثل نطاق سائب. ليست أولندا. الجدران القديمة تتقدم حاملة المناطق الجديدة معها، تتسع، ولكنها تحتفظ بتناسبها. هي ذات أفقٍ يبدو أكثر سعة عند نهايات المدينة، إنها تحيط بالمناطق الأحدث قليلاً والتي هي الأخرى

نهضت على حافات المدينة فكانت أخف كثافةً لتصير سكناً لأفراد آخرين مايزالون يضغطون عليها من الداخل، وهكذا يستمر الضغط يستمر حتى يصل إلى قلب المدينة.

أولندات جديدة تماماً أزهرت الواحدةُ من الأخرى، ومن هنا الحلقات البعيدة التي في داخلها. تبدو الآن، وإن تعذر تمييزها، ازدهارات لاولندا القادمة، ولتلكم اللواتي سوف يأتين بعدها.

حاول الخان العظيم أن يتأمّل اللعبة جيداً ولكن سبب اللعبة ظل غائباً عنه، فنهاية كل لعبة ٍربح أو خسارة، لكن ربح أو خسارة ماذا؟..

ماهي ثوابتها؟ بعد مقتل الملك وطرحه أرضاً بيد اللاعب، يظل اللاشيء: مربعٌ أسود أو مربعٌ أبيض. بتعرية غزواته والتوصل إلى جوهرها، وصل الخان إلى فعل متطرّف، إلى الغزوة ذاتها، والتي ليست مظاهر كنوز الإمبراطورية فيها غير أغلفةٍ خدّاعة. لقد تضاءلت إلى مربع من خشب مستو.

بعد ذلك تكلم ماركو بولو : لوحةُ لعبك يا سيدي، مكوّنة من خشبتين: الأبنوس والقيقب. والمربع الذي كانت تتسلّط عليه نظرتك الساطعة، مقطوع من حلقة جذع نمت في عام جفاف، ترى كيف تغيّرت أليافه؟

هنا، يمكن أن تخرج بنقطة واحدة بيّنة:

بُرْعُمٌ حاول أن يتفتح في يوم مبكر من أيام الربيع، ولكن ثلج الليل أوقفه».

حتى تلك اللحظة لم يكن الخان يدرك أن ذلك الأجنبي يعرف كيف يعبّر عن نفسه بطلاقة في لغته، لكن هذه الطلاقة ليست هي التي أدهشته:

«هنا أشد كثافة، لعله عشٌّ جنين، ليس دودة خشب، لأنه قد ظهر مرةً، سوف يبدأ الحفر لو كان دودة خشب، لكنه يسروع فراشة تقضم الورق، وسبب اختياره لتلك الشجرة هو لكي يطوح بها لا سواها، الحافّة مخدّشة، خدّشها قاطع الأخشاب بإزميلهِ كي تلتصق الدودة بالمربع الثاني، وتبرز أكثر.....».

حيّر قبلاي نوع الأشياء التي يمكن أن تقرأ في قطعة صغيرة ناعمة وفارغة من الخشب، لكن بولو بدأ يتكلم الآن عن الأكلاك المحمّلة بجذوع الأشجار والتي تنحدر في الأنهار، عن الأرصفة وعن النساء في النوافذ.

9

أخذ الخان العظيم أطلس مرسوماً عليه كل مدن الإمبراطورية والأقاليم المجاورة لها، بنايةً بنايةً وشارعاً شارعاً، مع الجدران والأنهار والجسور والموانئ والجروف الصخرية. هو يدرك من حكايات ماركو بولو أن من العبث توقع أنباء عن تلك الأمكنة، التي هو على علم كبير بها بسبب من ذلك: كيف، في كمبالو عاصمة الصين تقف ثلاث مدن مربعة الواحدة داخل الأخرى، كل واحدة بأربعة معابد وأربعة أبواب تفتح حسب الفصول؟ وكيف على جزيرة جاوة، يثور الكركدن ويندفع بقرنة القاتل؟ كيف تجمع اللآلئ على قاع المحيط بعيداً عن سواحل ما لابار؟

سأل قبلاي ماركو: «حين تعود إلى الغرب، هل ستعيد إلى شعبك الحكايات نفسها التي قصصتها علي؟..»

قال ماركو: «أنا أحكي وأحكي إنما المستمع يحتفظ بالكلمات التي ينتظرها وحدها. وصفي للعالم، ذلك الذي أعطيته كل سمعك هو شيء أقدمه لتجمعات محملي السفن وأصحاب الجندولات في الشارع خارج بيتي يوم أعود. ذلك وصف ووصف آخر، ذلك الذي سأقوله آخر عمري إذا ما اقتادني سجيناً قراصنة جنوا ووضعوا على يدي الحديد، في الزنزانة نفسها، مع كاتب مغامرات. ليس الصوت هو الذي يوجه القصة، الأذن هي التي تفعل ذلك..».

«في بعض الأوقات أشعر أن صوتك يصلني من بعيد، بينما أنا سجين البهرج، وفي حاضر لا يصلح للعيش، حيث البشر، في كل أشكال تجمعاتهم، وقد وصلوا نهاية دائرتهم. ولا تصور لي في أي الأشكال الجديدة سيكونون. وأسمع من صوتك، الأسباب الغامضة التي تجعل المدن تحيا، وإذا ماتت مرةً ستعود إلى الحياة مرة ثانية.»

كان لدى الخان العظيم أطلس تصور رسومه الكرة الأرضية كلها، قارة قارة، وتظهر فيه الأقاليم البعيدة، طرق السفن، السواحل، العواصم الكبرى، والموانئ الكبيرة. استبقت عيناهُ عيني ماركو بولو إلى الخرائط ليختبر معرفته. يميزُ المسافر مدينة القسطنطينية من ثلاثة شواطئ ترسم ممراً مائياً طويلاً، خليجاً ضيقاً وبحراً مغلقاً. هو يتذكر أن القدس أقيمت على تلين غير متساويين في الإيقاع يقابل أحدهما الآخر. وهو لا يتردد في الإشارة إلى سمرقند وجنائنها.

بالنسبة لبقية المدن، اعتمد وصفها على لفظ كلمة، أو يحدسها من معلومات ضئيلة، وهكذا عرف غرناطة لؤلؤة الخلفاء المخطّطة، لوبيك الميناء الشمالي المنظم، تمبوكتوا السوداء بالأبنوس والبيضاء بالعاج، باريس حيث ملايين الناس يعودون «بعصي خبز» غلاظ.

بزخارف ملونةٍ يصوّر الأماكن المأهولة ذات الأشكال الغريبة: واحةٌ مخفيّة في طيّة صحراء فلا تخرج منها إلا سعفات نخلة، هي بالتأكيد "نفتا"، وقلعة وسط رمال متحركة وأبقار تحدق في مراع أبقت عليها حركات المدّ ملحاً، تُذكّرُ بجبل سنت ميشيل، وقصر بدلاً من أن يرتفع من جدران المدينة ضمته تلك المدينة بين جدرانها، يمكن أن تكون اورتينو.

الأطلس يصور مدناً لا ماركو ولا الجغرافيون يعرفون مكان وجودها، مع أنها لا يمكن أن تفتقد بين أشكال المدن الممكنة: كوزكو على سهلٍ ساطعٍ متعدد الأقسام، يعكس النظام الكامل لتجارتها، مكسيكو الخضراء على البحيرة التي تسلط عليها قصر موتزتروما والنوماجورد بقبابه الشبيهة بالمصابيح، واللاسا التي ترتفع سطوحها البيضاء فوق السطح الغائم للعالم. لهذا أيضاً، قال ماركو اسماً، ليس

مهماً ماهو ذلك الاسم، واقترح طريقاً للوصول إليه. فالمعروف أن أسماء القصور تتغير عدد اللغات الغريبة، وأن كل مكان يمكن الوصول إليه من أمكنة أخرى، وبالطرق المختلفة وعبر الممرات المختلفة، التي يسلكها الجميع، الراكبون منهم والذين يقودون أو يجذفون أو يطيرون.

«أظنك تفهم المدن على الأطلس أفضل مما لو زرتها بشخصك..».

قال الإمبراطور لماركو وهو يلتقط صورةً من كتاب الخرائط. وأجابه بولو:

«وأنت مسافرٌ تغيب عنك الاختلافات. كل مدينة تتخذ لها شبهاً بالمدن الأخرى. الأمكنة تتبادل أشكالها، نظمها وأبعادها، سحابة من غبار لا شكل لها تغطي القارات، أطلسك في الحقيقة يحتفظ بالاختلافات؛ بتلك المجموعة من المميزات التي تشبه حروفاً في اسم».

الخان العظيم يمتلك أطلساً تجتمع فيه خرائط كل المدن: تلك التي تقوم جدرانها على أسس راسخة وتلك التي سوف توجد يوماً والتي ليس في موقعها اليوم إلا فسحة لأوكار الأرانب البرية.

ماركو بولو تصفح ذلك الكتاب، فعرف جرش، اور، قرطاج، وأشار إلى مكان الهبوط عند مصب السكاماندر حيث انتظرت سفن الأخيين عشر سنوات لتحمل المحاصرين إلى بلادهم، حتى شدّ يوليسيس الخيل معاً وسحبها بالمرافع خلال بوابات سكاين.

وهو يتكلم عن طروادة، أعطى المدينة شكل القسطنطينية وقدّر الحصار الذي فرضه محمد عليها بشهور طويلة وبذكاء مثل ذكاء يولسيس، سحب سفنه في الليل إلى الأنهار، من البوسفور إلى القرن الذهبي وحاذى بيرا وقلاطة. ومن خليط تلكما المدينتين ظهرت ثالثة،

لعل اسمها سان فرانسيسكو، والتي تخترق البوابة الذهبية والخليج بجسور طويلة مضاءة وترسل قطارات تتسلق شوارعها المنحدرة. ربما ازدهرت هذه المدينة كعاصمة للباسفيك بعد ألف سنة. بعد الحصار الطويل حصار الثلاثمائة سنة، السنوات التي أدى فيها تنافس الجنس الأصفر والجنس الأسود، والأحمر لأن يتلاشوا في السلالات الباقية للبيض وفي إمبراطورية أوسع كثيراً من إمبراطورية الخان.

للأطلس هذه المزايا: إنه يكشف شكل المدن التي لا أشكال لها ولا أسماء، ففيه مدينة بشكل أمستردام، شبه دائرة تواجه الشمال، فيها قنوات واحدة المركز - إنها للأمراء، للأباطرة والنبلاء. هنالك مدينة في شكل يورك قائمة بين المستنقعات حولها أسوارٌ عالية الأبراج. هنالك مدينة في شكل نيو امستردام، (أمستردام الجديدة) معروفة باسم نيويورك، محشوّة بأبراج من زجاج وحديد، تقع على جزيرة مستطيلة بين نهرين، شوارعها مثل قنوات عميقةٍ، مستقيمة كلها عدا برودوي.

مجموعة الأشكال تلك لا تنتهي، حتى يجدكل شكلٍ مدينته وستولدُ دائماً مدن جديدة، حين تتعب الأشكال من تنوّعها وتنعزل، تبدأ نهايات المدن.

في الصفحات الأخيرة من الأطلس يبدو إنهمارٌ من بثٍ إذاعي لا بداية له ولا نهاية. مدن في شكل لوس أنجلس، وفي شكل كيوتو أوساكا، ومدن لا أشكال لها.

مدن والموتى ٥

مـثل لودومـيـا ، تقع إلى جـانب كـل مـدينـة مـدينـةٌ أخـرى، يحـمـل سكانها الاسم نفسه:

المجـاورة هذه هي لودومـيـا الموتى، المقـبـرة، ولكن للـودومـيـا مـزيـةٌ أخرى هي أنـهـا ليـست مـدينتين ولكن ثلاث مـدن، هي بإيجاز. تشـتـمل على لودومـيـا ثـالثـة، مـدينـة الذين لم يولدوا. أمـلاك المدينـة المزدوجـة معروفة جداً، كلما كبرت مساحة وازدحمت بشراً، كلما ازدادت قبورها وتجاوزت المقبرة أسوارها، شوارع لودوميا الموتى واسعةٌ تتسع لعربات حفّاري القبور، والكثير من الأبنية، التي لا نوافذ لها، تشرف على تلك الشـوارع ولكن نمط الشـوارع وتنظيم السكن يكرّران مـافي لودومـيـا الأحياء، وفي كليهما تجتمع العوائل معاً وتزدحم.

في بعض أقسامها تتوالى الدور الواحدة فوق الأخرى. في الأماسي اللطيفة، يقوم السكان الأحياء بزيارات للموتى ويسجلون أسماءهم على شواهدهم. هذه المدينة مثل مدينة الأحياء، تكشف تاريخ الكدح والغضب والخداع والعـواطف، إنما هنا صـار كل شيء ضرورياً ولـم يعد يتـحكم به الحظ أو الأبراج. هو الآن مـوضوع في نظام، ولكي تؤكد شعورها بذاتها صار لزاماً على لودوميا الأحياء أن تبحث في لودوميا الموتى عن تفسير

لنفسها وإن اقتضى ذلك منها مغامرةً لتجد هناك ما قد تجده. هذه تفسيرات لأكثر من لودوميا واحدة. لمدن مختلفة كان ممكناً أن تكون ولم تكن أو هي أسباب غير كاملةٍ، متناقضة أو مخيّبة.

لودوميا تؤكد سكناً واسعاً مساوياً لما لِلودوميات التي لم تولد، ومن الطبعي أن الفراغ لا يتناسب وعدد سكانها الذي هو محدود جداً. لكن ما دامت المنطقة خالية محاطة بِطَرْزٍ من تماثيل وخلجان وأخاديد، وما دام ممكناً تصوّر حجم التي لم تولد، كبيرة كالجرذ أو بحجم دون القز أو النمل أو بيض النمل، فلا شيء يمنع تصورها قائماتٍ أو منحنيات على أي جزء أو مسندٍ ناشئ من جدار ففي رأس أي عمود أو على قاعدة أي تمثال، قائمة، شاخصة هي أو متناثرة، مهتمة في الحالين بشؤون مستقبلها. لذا يمكنك أن تتأمل عبر قناع من المرمر كل لودوميا المائة أو الألف سنة الماضية وهي مزدحمة أصنافاً من ناس في زيّ لم يُرَ من قبل، كلهم في ثكنات بلون الباذنجان مثلاً، وريش تركي على عمائمهم، يمكنك أن تميّز سلفك من أولئك المتحدّرين من عوائل أخرى، ودينين أو معادين دائنين أو مقرضين، وهم مستمرون في الانشغال بقضاياهم، ثاراتهم، زيجات الحب أو المال. أحياء لودوميا يسكنون بيوت الذين لم يولدوا ليسائلوهم، الأسئلة يجاب عنها بالصمت، ودائماً ما يسأل الأحياء عن أنفسهم، لا عن الذين سيأتون. أحدهم مهتم بمعرفة هل سيخلف وراءه سمعة واضحة المعالم، آخر يريد أن ينسى عاره، الجميع يريدون أن يتتبعوا خطّ نتائج أفعالهم، لكنهم كلما دققوا النظر في الخط المستمر، كلما قل وضوحه لهم. سكنةُ لودوميا في المستقبل يبدون مثل النقاط، مثل ذرات تراب تنبثق من أي شيء وقبله أو بعده.

لودوميا الذين لم يولدوا لا تتحرك من مكانها مثل مدينة الموتى، أي إحساس بالأمان في لودوميا الأحياء هو إنذار. في النهاية تجد أفكار زوارها طريقين أمامها، ولا خبر أي الموانئ هي الأكثر كرباً: عليك أن تعتقد بأن عدد الذين لم يولدوا أعظم كثيراً من مجموع الأحياء والأموات، وعلى هذا يكون في كل سُمٍّ من مسام أية صخرة حشودٌ غير مرئيةٍ متكتلين على حافات قمع، كما في الملعب الإغريقي، ومادام أحفاد لودوميا في كل جيل يتضاعفون، فكل قمع يحتوي على مئاتٍ من الأقماع الأخرى في كل واحدٍ ملايين الأشخاص الذين سيولدون، يدفعون أعناقهم خارجاً ويفتحون أفواههم لينجوا من الاختناق. وإلا فلودوميا، أيضاً، ستختفي، لا خبر متى، وسيختفي كل سكنتها معها. بكلمات أخرى، ستتواصل الأجيال إلى حدّ عدد معيّن ثم تتوقف، بعدها تكون لودوميا الموتى ولودوميا الأحياء مثل مصباحَي الساعة الرملية التي لم تنقلب، كل ممرٍ بين ميلادٍ وموت هو حبّة رمل تعبر عنق الساعة الرملية، وهنالك سيولد آخر سكان لودوميا، آخر حبة تسقط والتي هي الآن أعلى الكوم تنتظر.

مدن والسماء ٣

دُعيَ المنجمون لوضع قواعد لتأسيس برنثيا فاختاروا المكان واليوم حسب مواقع النجوم، فرسموا الخطوط المتقاطعة، الأول اتجه شرقاً نحو طريق الشمس والآخر مثل محور تدور حوله الأفلاك. لقد قسموا الخارطة حسب الأبراج الاثني عشر، لذا فكل معبد وكل حارةٍ يتلقيان قوتهما وأقدارهما من برجيهما المقربين. هم ثبتّوا على الجدران نقاطاً حيث يجب أن تكون أبواب. تصوروا كيف سيشكل كل باب منها خسوف القمر في الألف سنة القادمة. برنيثيا ـ التي هيّأوها ـ ستعكس انسجام عقل الطبيعة الثابت ولطف الآلهة وهما يشكلان أقدار الناس فيها. وباتباع نتائج المنجمين بدقّة، شيدت برنيثيا:

ناس مختلفون جاؤوا وسكنوا فيها، نما أول جيل بين جدرانها، وأولاد بلغوا سن الرشد ثم كان لهم أطفال.

في شوارع برنيثيا وميادينها ترى اليوم عرجاً، أقزاماً حدباً رجالاً، بُدَناء، نسوةً ملتحيات، وماهو أسوأ فيها، لا يُرى. تسمع غرغرة تأتي من السقوف والأعالي، حيث يخفي الناس هناك أطفالهم ذوي الرؤوس الثلاثة والستة أرجل.

منجمو برنيثيا يواجههم اختيارُ صعب، فهم إما أن يعترفوا بأن كلٍّ نتائجهم خطأ وأن أشكالهم غير قادرةٍ على أن تصف السموات، أو أن يكتشفوا من ذلك أن نظام الآلهة منعكس تماماً في مدينة المخلوقات الغريبة هذه...

مدن مستمرة ٣

كل سنة من سنين أسفاري، أتوقف عند برسبيا وأسكن في النزل نفسه وقد توقّفتُ أول مرّة أتأمل الضاحية التي تتكشف عند رفع ستارة النافذة: خندق جسرٌ، حائط صغير، شجرة مَشملةٍ، حقل ذرةٍ،حدبة تل صفراء، سحابة بيضاء، شكل ممتد من زرقة السماء يشبه أرجوحة البهلوان، تأكدت أوّل مرةٍ من أن لا أحد هناك. في السنة الثانية، وفي حركة بين الأوراق، أمكنني لمح وجهٍ مستدير ممسوح يقضم عرنوص ذرة، بعدسنة من ذلك، كان هناك ثلاثة منهم على الحائط، وحين استدرت، رأيت ستة قاعدين صفّاً وأيديهم على ركبهم، وثمرات من المشملة في صحن. صرت في كل سنة وحالما أدخل الغرفة، أرفع الستارة، فأحصي عدداً أكبر من الوجوه:

ستة عشر، منهم أولئك الذين في الخندق، تسعة وعشرون منهم ستة وجوه استقرت على شجرة المشملة، سبعة وأربعون إضافة إلى أولئك الذين في كنّ الدجاج. يبدون متشابهين، يبدون مهذبين على خدودهم كلف، يبتسمون لبعضهم شفاه مسودّة من التوت البرّي، ثم رأيت كل الجسر مزدحماً بذوي الوجوه المدورة، يحتشدون هناك، بعد أن لم تبق غرفة خالية يدخلون فيها، إنهم يقضمون لبَّ عرانيص الذرة، ثم ينتهشون

أوراقـهـا ثم سنة بعـد أخـرى، صـرت أرى الضـاحيـة تخـتـفي: الخندق، الشجرة، رقعة العوسج... كلها اختفت، وراء ابتسامات هادئة بين خدود مدوّرة، يحركون أو يعلكون الأشجار، لا يخطر في ذهنك كم من الناس يمكن أن تحـتـويهم مـسـاحـة مـحـدودة مـثل ذلك الحـقل الصـغـيـر للذرة، وبخاصة إذا جلسوا القرفصاء بلا حراك، لابد أنهم أكثر جداً مما يبدون فقد رأيت قـمـة التل مغطاة بزحـام متكاثف، والناس الذين على الجسر بدأوا عـادة جديدة، إنهم يتسلقون أكتاف بعضـهم نظرتي لا تصل أبعد من ذلك.

أخيـراً في هذه السنة، رفعت السـتـارة فكشفت النافذة عن مدّ من الوجـوه، من هذه الزاوية إلى تلك، على جـمـيع المسـتـويات، وفي كل الأبعاد، هي الوجوه المدوّرة، السـاكنة، المسطحة تماماً، هي كلّ ما يرى، وعليها ابتسام خفيف وفي وسطهم عدة أيد تمسك بأكتاف الذين أمامهم.

الآن حتى السماء اختـفت، فعلي إذن مـغـادرة النافذة، هذا لا يعني أن الحركـة سـهلة بالنسـبـة لي. فـهناك سـتـة وعـشـرون يسـكنون مـعي في غـرفـتي. وأن أسـحب قـدميّ يعني إزعـاج أولئك المتكدسين على أرض الغـرفـة، فـشـقـقت طريقي بين ركب من هم على الخزانات وأولئك الذين أخذوا نوبتهم في النوم على السرير: كلهم ناس مهذبون لسوء الحظ.

مدن مخفية ٢

الحياة في رايسا غير سعيدة، الناس يفركون أكفّهم وهم يسيرون في الشوارع، يلعنون صراخ الأطفال، ينحنون على الأنهر من فوق الأسيجة ويشددون قبضاتهم على معابدهم. في الصباح تستيقظ في هذه المدينة من حلم سيئ لتبدأ حلماً سيئاً آخر. تدخل في صوى العمل حيث في كل دقيقة تضرب إصبعك بالمطرقة خطأً أو تخزها بالإبرة أو تكون مائلاً على أعمدة التماثيل أو محنياً على سجلات التجار ورجال المال، أو تكون بين صفوف الأقداح الفارغة على المناضد القصديرية لأصحاب مخازن الخمور. في هذه كلها تخفى كل الرؤوس المحنية نظرةً عامة متجهمة، داخل البيوت، الأمر أسوأ، وما عليك إلا أن تدخل لترى:

في الصيف تضج النوافذ بالمشاجرات والصحون المحطمة، وفي رايسا كل دقيقة ينبثق طفل في الشباك، يضحك وهو يرى كلباً يقفز على ظلّةٍ لينال بعضاً من مُهَلَّبةٍ تسقط من عامل بناء، يصيح من أعلى السقالة:

«دعني يا عزيزي أغمس فمي فيها...». الصبية الخادم تحت العريشة تحمل صحناً من حساء الراكوت المتبل سعيدة بتقديمه لباني المظلة، وهو يحتفل الآن بإنجاز عمله الناجح.

سيدة عظيمة اشترت مظلة من دانتلا بيضاء لتثبتها حيث تجري سباقات الخيل، هذه السيدة تعشق ضابطاً ابتسم لها مرة وهو يؤدي قفزته الأخيرة. رجل سعيد، وأكثر سعادة منه حصانه وهو يرتفع فوق الموانع، رأى دُراجه تطير في السماء، حررها من قفصها، رسّام سعيد بأنه رسمها ريشة بعد ريشة، بهذه الألوان نفسها: الحمراء والصفراء في وهج تلك الصفحة في كتاب الكون حيث يقول الفيلسوف:

«كذلك في راسيا مدينة الحزن؛ هنالك يجري خيط غير مرئي يربط كائناً حياً بآخر للحظة ثم يوحدهما نسيجاً واحداً، ثم ينحل النسيج مرة أخرى بين نقطتين متحركتين، وهو يرسم مقاطع جديدة وعجلة وبهذا تحتوي هذه المدينة غير السعيدة في كل لحظة على مدينة سعيدة دون أن تعلم بوجودها.».

مدن وأسماء ٥

اندريا ، شيدت بتفنن بالغ، حتى أن كل شارع من شوارعها يتبع فلك أحد النجوم، والأبنية وأمكنة الحياة الاجتماعية تكرر نظام الأبرا ج ومواقع الكواكب الأكثر سطوعاً: عطارد ، المريخ. وتقويم المدينة منظم حدّ أن الأعمال والدوائر والاحتفالات نظمت على خارطة تدل على أوقاتها الثابتة: فالنهارات على الأرض والليالي في السماء تعكس الواحدة الأخرى.

ومع أن المدينة أخضعت لنظام صارم، فإن الحياة في المدينة تجري بهدوء مثل حركة الأجسام السماوية فهي تسيرها أحكام حتمية لا أمر من نزوة بشرية.

لكي أثني على أهل أندريا ، أميل إلى القول:

إنني أفهم جيداً كيف تحسّون بأنفسكم جزءاً من سماء لا تتغير، عجلات في آلية ميكانيكية، يهمكم ألا يحدث أدنى تغيير في مدينتكم وعاداتكم. اندريا هي المدينة التي أعرف بين المدن، حيث يكون الأفضل فيها البقاء في الزمان دون حركة.

نظر كلٌ منهما إلى الآخر باستغراب، «ولكن لماذا ؟ من قال مثل ذلك؟.. »، وأخذوني لزيارة شارعٍ معلق افتتح أخيراً فوق حرج من

البامبو، مسرح ظلٍ يشاد الآن في مكان مخازن البلدية، انتقلت إلى سرادقات المستشفى الأول الذي دمر حين بدأ بعلاج ضحايا آخر طاعون وتماماً أثناء تدشين مرسى نهري وتمثال لطاليس على منحدر.

سألت: «وهل هذه التجديدات، تربك الإيقاع السماوي لمدينتكم؟..».

أجابوا: «مدينتنا والسماء يتواصلان في كل شيء حتى إن أدنى تغير في أندريا يقابله تغير بين النجوم»، المنجمون بعد كل تغير في أندريا ينظرون في تلسكوباتهم ويسجلون انفجاراً في «المستسعر» أو نقطة بعيدة تتحول بانتظام ثابت من اللون البرتقالي إلى الأصفر، انتشارَ سديم، انحناءً لولبياً للمجرى. كلُّ تغير يقتضي تغيرات أُخرى، في أندريا كما هو بين الكواكب المدينة والسماء لا يبقيان أبداً كما هما.

أما عن شخصية سكان أندريا، فلهم فضيلتان تذكران: الثقة بالنفس والحصافة، هم مقتنعون بأن كل تجديد في المدينة له تأثيره على النمط السماوي، فهم قبل اتخاذ أي قرار يفكرون بهذه المخاطرة وبالمزايا التي تنتج عن ذلك لهم وللمدينة وللعوالم.

مدن مستمرة ٤

تعاتبني على قصصي، كل واحدة تأخذك إلى قلب المدينة مباشرة دون أن تخبرك عن الفراغ الذي يفصل مدينة عن أخرى، مغطاة بالبحار أو بحقول الشيلم أو بغابات الأرز أو بالمستنقعات. أخبرك الآن بقصة:

في شوارع سيسيليا، وهي مدينة مشهورة،التقيت مرة براعي ماعز، يقود قطيعاً ترن أجراسه بمحاذاة الجدران.

توقف الراعي وسألني: «لتبارك الإنسان السماء، هل تخبرني في أي مدينة نحن؟»

فصرخت: «ليكن الله معك، كيف لا تعرف مدينة سيسيليا المعروفة؟»

أجاب: «صبرك عليَّ، أنا راعٍ جوال، نضطر أحياناً أنا وماعزي، على المرور عبر مدنٍ لا نعرفها. سلني عن أسماء أراضي الرعي، أنا أعرفها كلُّها: «المرعى بين الجرفين»، «السفح الأخضر»، «عشب الظل»... المدن لا أسماء لها عندي: هي أمكنةٌ بلا أوراق، تفصل مرعى عن مرعى، وهي أمكنة ترتعب منها الماعز، تتشتت في منعطفات شوارعها، نتراكض، كلبي وأنا، لنلمها. في الأمكنة غير المأهولة، كل حجرٍ وكل رقعة عشب يختلطان في عيني بكل حجر ورقعة عشب آخرين.

سنوات عـديدة مرّت منذ ذلك العـهـد، عـرفت مـدناً أكـثر مـن تلك وعبرت قـارات. يوماً كنت أسير بمحـاذاة صفٍّ من البيـوت الاعـتيـادية، كنت تائهاً فسألت عابراً:

«يحـمـيك الخـالدون، هل أخـبـرتني أين نـحن؟.» فـأجـاب: في سيـسيليـا، أي حظ سيئ، نحن نتـجول في شـوارعـهـا، مـا عـزي وأنا من دهرٍ، ولم نجد حتى الآن طريقنا.».

عـرفـتـه، على الرغم من لحـيـتـه الطويلة البيـضـاء، إنه راعي الماعـز نفسه، راعي الزمن البعـيـد، كانت تتبعـه بضع من الماعـز التي افـتـقـدت حـتـى رائحـتـهـا، هزلت فـهـي جلد وعظم، كـانت تعـلك الورق الملقى في صفـائح القـمـامة، صـحـت: «لا يمكن أن يكـون هذا، أنا أيضـاً دخلت مـدينة لا أتذكـر مـتى، ومـذ ذاك اسـتـمـررتُ، توغلت أبعـد فـي شـوارعـهـا، لكن كيف وصلت أنا إلى مدينة تقول عنها، وأنا في مـدينة أخرى، بعـيـدة جداً عن سيـسيليا، وهل أنا لم أغادرها بعد؟»

قال راعي الماعز: «الأمكنة اختلطت، فـقد كان مرعي الحكيم الأدنى في يوم من الأيام هنا. ماعزي الآن تميز الأعشاب على جزرة المرور..».

مدن مخفية ٣

سئلت كاهنة عن طالع مورازيا، فقالت:

«أرى مدينتين: مدينة فأر ومدينة سنونو.»، وتفسير العرافة الصارمة لذلك هو : مورازيا اليوم، حيث الكل يركضون خلال ممرات من الرصاص مثل علب الفئران، الفئران التي تمزق أسنان بعضها القطع التي تتساقط من أسنان الفأر الأعظم شراهة، لكن عصراً جديداً يوشك أن يبدأ، سوف يطير فيه كلُّ سكان مورازيا مثل عصافير في سماء صيف، يدعو أحدهم الآخر كما في لعبة، يستعرضون، أجنحتهم ساكنة، وهم ينقضّون، يخلّصون الهواء من كل ما فيه من بقٍّ وجرجس.

« إنه زمن ينتهي فيه عصر الفئران، ويبدأ فيه عصر السنونو... »

وفي الحقيقة، يمكنك القول بأن وراء تجهم السلطة الفأروية الضعيفة، وبين أقل الناس شأناً، همساً عن استعدادهم للطيران مثل طيران السنونو. التوجه للهواء بضربة بارعة بالذنب، يتنقلون عليه، ثم وبحافات الأجنحة يحاذون قوس الأفق المفتوح.

عدت إلى مورازيا بعد سنوات: لبعض الوقت بدا أن نبوءة العرافة تحققت، العصر القديم مات ودفن، والجديد في أوجه. أكيدٌ أن المدينة تغيّرت، وربما إلى الأحسن. لكن الأجنحة التي رأيتها تتحرك في الجو

هي أجنحة ذوي المظلات المريبة التي تُخْفَضُ تحتها أجفان ثقيلة، هنالك ناسٌ يعتقدون بأنهم يطيرون، وهذا الأمر ناتج من تصوّرهم إمكان الخلاص من الأرض فهم يخفقون بمعاطفهم مثل الخفافيش.

يحدث أيضاً وأنت تسير بمحاذاة جدران مورازيا التي يسند بعضها بعضاً، وحين يتضاءل تماماً توقعك، أن ترى شِقاً يفتح ومدينة جديدة تظهر، ثم بعد لحظة، تتلاشى تماماً. ربما كان كل شيء يخضع لمعرفتنا أي الكلمات نقول، أي الأفعال ننجز، وفي أي نظام وإيقاع، وإلاً فتحديقة من أحدهم، جواب، إشارته تكفي. هي كافية لبعضهم لأن يفعل شيئاً من أجل المتعة وحدها، لإلتذاذه بأن يكون لذة وسرور الآخرين: في تلك اللحظة كل الفراغات تغيرت، كل الارتفاعات، كل المسافات. المدينة تحولّت وأصبحت بلورية، شفافة كاليعسوب، لكن كل شيء يجب أن يحدث كما لو كان صدفةً، دون اهتمام بذلك، دون إصرار، على أنك تنجز فعلاً حاسماً، وأن تتذكر بجلاء أن مورازيا ستعود في أية لحظة وقد ارتخى سقفها الحجري ونسيج العنكبوت والغبار فوق الرؤوس.

هل أخطأت العرافة؟ لا نجزم بذلك فأنا أفسر الأمر هكذا: مورازيا تتكون من مدينتين، مدينة الفئران ومدينة السنونو، كلاهما تتغيران في الزمن لكن علاقاتهما لا تتغير، الثانية توشك أن تحرر نفسها من الأولى.

مدن مستمرة ٥

أن أُحدثك عن بنثيسيليا، عليَّ أن أبدا بوصف مدخل المدينة، لاشك بأنك تتصور دائرةً من جدرٍ ترتفع من سهلٍ مغبّر، حتى تصل ببطء إلى بوّابتها التي يحرسها رجال الكمارك، فتسيل نظرات الريبة من زوايا عيونهم على صرر أمتعتك. حتى إذا وصلت المدينة، رأيت نفسك خارجها:

تمرّ تحت الطاق فتجد نفسك فيها تحيط بك كثافتها، ترى كتابة محفورة على صخرها، إن تابعت سطرها الصخري المثلم كشفت لك عن معناها.

إذا كان هذا ما تعتقد به، فلقد أخطأت:

بنثيسيليا تختلف عن ذلك، تتقدم نحوها ساعات ولا تتضح لك سواء كنت في وسطها أو أنك ما تزال خارجها، هي مثل بحيرة ضفافها الخفيضة ضائعة في المستنقعات. لهذا تمتد بنثيسيليا أميالاً من حولك، مدينة مائعة تترجرج في السهل، أبنيتها باهتة متساندة ظهراً لظهر في حقول رثة بين أسيجة خشبية ومظلات من صفائح مموّجة من حديد.

هنا وهناك على جوانب طرقها مجموعات من أبنية ذات واجهات مرتدة قليلاً، طويلة جداً أو واطئة جداً، مثل مشط مثلم الأسنان تكشف

لك أن من ذلك المكان يبدأ اكتظاظ المدينة ولكنك تستمر فترى بدلاً مما توقعت فراغات غامضة أخرى، ثم ضاحية صدئة من ورش عملٍ ومستودعات بضائع ومقبرة ودولاب هواء ومجزرة. ثم تنحدر في شارع مخازنه رثة تتلاشى مابين بقعٍ في ريف مجذوم.

إذا سألت الناس الذين تلاقيهم:

« أين هي بنثيسيليا ؟ » سيرسمون إشارة عريضة ربما كان معناها: « هنا » أو « ما تزال بعيدة » أو « حواليك »، أو « في الاتجاه الآخر. »

وتؤكد سؤالك: « أعني المدينة؟ »

فيقول بعضهم: « نحن نأتي إلى هنا كل صباح لنعمل ».

بينما يجيبك آخرون: « نحن نعود إلى هنا في الليل لننام. »

وتسألهم: « لكن المدينة حيث يعيش الناس؟ » فيقولون لك: « لابد أنها في ذلك الطريق ».

ويرفع بعضهم أذرعهم منحرفة إلى تجمع أكمد من سطوح على الأفق، بينما يقول آخرون:

« وراءك أشباحُ رؤوسِ أبراجٍ »

« إذن، فأنا قد مررت بها ولم أُدركها ؟ »

« كلا، امضِ قدماً إلى أمام.. »

وهكذا تستمر تعبر من ضاحية إلى ضاحية، فيحين الوقت لتغادر بينثيسيليا، تبحث عن طريق يخرج بك منها، فتجتاز ثانية سلسلة من ضواحٍ متناثرة بقعاً مثل خضاب مرقش.

يهبط الليل، تُضاء النوافذ متقاربة هنا متباعدة هناك. وتتخلى عن محاولة فهم هل هناك بنثيسيليا، يدركها الزائر ويتذكرها، في كيس،

أو في طيّة بين هذه المختلفات المحيطة بك أو أن بنثيسيليا ليست هي إلا ضواحي نفسها ؟...

السؤال الذي يبدأ القرض في ذهنك أكثر غموضاً: هل هنالك خارجٌ خارج بنثيسيليا ؟ أم هل أنك إذا تركت المدينة، ومهما ابتعدت عنها، ستظل تعبر من أعراف إلى أعراف، فلا تستطيع مغادرتها ؟..

مدن مخفية ٤

تكرار الغزو دمّر مدينة ثيودورا عبر قرون تاريخها فما أن يغادر عدوٌ حتى يجمع آخر قواه ليهدد من تبقى من سكانها، حينما خلت السماء من النسور، واجه سكان المدينة انتشار الأفاعي وفناء العناكب ترك الذباب يطير أسراباً سوداً، كما أن الانتصار على النمل الأبيض جعل المدينة تحت رحمة الارضة.

الأنواع المتضاربة في المدينة أنهاها الموت فاندثرت. قدرة الناس فيها على شق الدروع والحراشف، على الإطاحة بالأجنحة والريش، أكسبت تيودورا صورة مدينة الإنسان المنيعة، هذه الصفة ما تزال تميّزها.

من البداية ولسنين طويلة، لم يكن مؤكداً أن النصر سينتقل إلى آخر نوعٍ مقاتل ضد امتلاك الإنسان للمدينة، وهو الفئران. من كل جيل من أجيال القوارض تخلف البقية الضئيلة التي تنجو نوعاً أسوأ يمتنع على المصائد ويقاوم كلّ أنواع السموم. خلال بضعة أسابيع أعيد إسكان خياطي ثيودورا مع حشود من الفئران المنتشرة. أخيراً وفي مذبحة كبيرة، دحر الجنس البشري، ببراعاته المتنوعة في القتل، قوى الحياة الهائلة للأعداء.

المدينة، وهي مقبرة كبيرة لمملكة الحيوان، أغلقت، تم تعقيمها بعد دفن آخر الجثث مع آخر البراغيث وآخر جراثيمها. الإنسان أخيراً، أعاد

إقامة نظام العالم الذي أربكه بنفسه، لا يوجد نوع آخر من الأحياء يثير الريبة بعد الآن.

ولكي تتذكر ثيودورا ماكان فيها من الحيوان، تحتفظ رفوف مكتبتها بمجلدات بوفون ولينايوس، أخيراً هذا الذي صار يعتقد به سكان ثيودورا، وابتعدوا عن تصور نهوض الحيوانات القديمة من سباتها. لقد أبعدت إلى مناطق نائية وأماكن خفية، ومنذ استقروا على انعدام تلكم الأحياء، حيوانات أخرى بدأت تعود إلى النور من سراديب المكتبة حيث يحتفظون بالكتب القديمة. كانت تقفز من رؤوس الأعمدة ومن أنابيب المجاري وتهبط على أسرة النائمين:

عنقاوات، كلاب الغريف الصغيرة، تنانين، هركوسرفيات، خطافات، هيدرات، وحيدات القرن، عظايا البازليسق... كانت تستعيد امتلاك المدينة.

مدن مخفية ٥

لن أخبركم عن بيرنيس ، المدينة الظالمة، المتوجة بالشرفات المنقوشة، والأفاريز وبمعدات مكائن فرم اللحم، (الرجال المهمومون بالتلميع يرفعون أحناكهم فوق الدرابزينات ويتأملون الردهات والسلالم والأروقة، فيشعرون بالحبس أكثر، تتضاءل قاماتهم.). بدلاً من ذلك سأخبركم عن بيرنيس الخفية، مدينة العدل التي تحتفظ بسلعها المعدنية في الحجر، خلف المخازن وتحت السلالم، تربط شبكة من الأسلاك والأنابيب والبكرات والمكانس والموازين، التي تمتد متشابكة مثل نبات متسلق، بين عجلات موصلة ببعضها. (تخرج إشارة مكبوتة تنذر: بميكانيكية جديدة ضاغطة تحكم المدينة).

بدلاً من أن أصف لك أحواض السباحة المعطرة حيث يرتاح الظالمون في برنيس وينسجون مكائدهم ببلاغة طنّانة يتابعون بعيون المالكين اللحم المثير للجواري، بدلاً من ذلك علي أن أقول لك كيف أن العادلين كانوا حذرين دائماً يتقون تجسس المنافقين ومتابعات الانكشاريين ويميزون واحدهم الآخر من طريقة كلامهم، وبخاصة لفظهم للفوارز والفواصل، من عاداتهم التي بقيت ثابتة وبريئة، هم يتجنبون الأمزجة المعقدة والعصبية، ومن طبخهم المقتصد لكن طيب المذاق والذي يمثل عصراً ذهبياً قديماً:

حساء كرفس وفاصولياء مسلوقة ومسحوق الأزهار المقلي.

من هذه المعلومات يمكن رسم صورة لمستقبل بيرنيس، تقربك لمعرفة حقيقة المدينة أكثر من أية معلومات أخرى ترد عن المدينة اليوم.

عليك أن تحتفظ في ذهنك بما سأقوله لك:

بذرة سوء تختفي في نواة مدينة العدالة، في استدارتها، بذرة السوء هذه هي : اليقين والكبرياء المتأتيان من أنها على صواب أنها أكثر عدلاً من العادلين. هذه البذرة تخمرت استحالت مرارة، منافسة، استياءً والرغبة الطبيعية بالثأر من الظالمين اتخذت شكل التوق لأن يحلّوا في مواقعهم، ولأن يفعلوا بهم كما يفعلون، مدينةٌ ظالمة أخرى، وإن اختلفت عن الأولى، تحتاز لها مكاناً داخل الغلاف المزدوج لبيرنيس العادلة وبيرنيس الظالمة.

أنا إذ أقول هذا، لا أريد عينيك أن تريا الصورة المشوهة، لذا ألفت نظرك إلى فضيلة خاصة بهذه المدينة الظالمة، وهي تنتشر داخل المدينة العادلة السرية، ذلك هو الصحو الممكن للحب الأول للعدالة، الحب الذي لم يخضع لقواعد حتى الآن، استيقاظ الحب المفاجئ هذا يشبه انفتاحاً مثيراً لنوافذ مغلقة، إنه حب قادر على تشكيل مدينة أكثر عدالة حتى مما كانت عليه قبل أن تصير وعاءً كبيراً للظلم.

إذا أنفذت نظرك في «جرثومة» العدالة الجديدة هذه أمكنك أن ترى بقعة صغيرة تنتشر، إنها مثل رغبة تكبر فتدفع ماهو عادل خلال ماهو ظالم، وربما كان هذا أصل عاصمة عظيمة.

من كلماتي تصل إلى نتيجة هي أن بيرنيس الحقيقية إرث مؤقت لمدن مختلفة، عادلة وغير عادلة على التناوب، إنما أريد أن أحذرك من شيء آخر:

كل بيرنيسات المستقبل حاضرات الآن ملفوفات الواحدة بالأخرى، مشدودات لبعضهن، متشابكات ولا انفصال لواحدة منهنّ عن الأخرى.

أطلس الخـان العظيم يحـوي أيضـاً خـرائط للأراضي الموعـودة التي يزورها الفكر والتي لم تكتـشف أو لم توجـد بعـد: أطلنطيس الجـديدة، المدينـة الفاضـلة، مـدينـة الشـمـس، الأوقيـانوسيـة، تامـوي، الهـارمـونيـا الجديدة، لانارك الجديدة وإيكاريا .

سأل قبلاي ماركو: «أنت الذي طوّفت تكتشف الدنيا ، والذي رأى عـلامات ونذُراً ، هل تقدر أن تـخبرني باتجاه أي من المستـقبَلات تسـوقنا الرياح الطيبة؟ ».

«إلى تلك الموانئ التي لـم أستطع رسم طريق إليها على الخارطة أو أسجل تاريخاً لوصولي إليها ، كنت بعض الأوقات أحوج ما أكون لإشارة موجزة، فتحة مضيئة وسط ضاحية معتمة، لمحة ضوء في الضباب، حوار اثنين عابرين، يلتقيان في الزحام، وكنت أظن ذلك منطلقاً لي من هناك، أرى قطعـة بعـد قطعـة، المدينة الكاملة، مكـونة مـن قطع مـختلطة بالبقيـة التي انفصلت عنها أخيراً بفجوات، ومن علامات ترسلها إحداها ولا أحد يعرف من يتسلمها . إذا أخبرتك أن المدينة التي توصلنـي إليـها رحلتي غير مسـتـمرة في المكان والزمـان وأنها هي منتـشـرة الآن، وهي الآن أكثـر كثـافـة، يجب ألا تعـتـقد بأن البحث عنها يمكن أن يتـوقف... ربما ونحن نتكلم، هي تنهض منتشـرة ضمن حدود مملكتك، ويمكن أن تـتبعها ، إنما بالطريقة التي قلت. ».

في هذا الوقت كان الخان يقلب صفحات الأطلس، ويرى إلى خرائط المدن التي تهـددنا فـي الكـوابيس وعـندمـا تحل اللعنات: اينوح، بابل، أرض المياه، بوتوا ، العالم الجديد الشجاع.

قال : إنها جميعاً غير مجدية، مادام مكان وصولنا الأخير هو مدينة الجحيم التي يسحبنا التيار فيها إلى دوائرها التي تظل تضيق إلى الأبد.

وقال بولو: «إن جحيم الأحياء ليس شيئاً سيكون، وإذا وجد جحيمٌ، فهو ذلك الموجود هنا الآن، الجحيم حيث نعيش كل يوم والذي نكوّنه حين نكون معاً. هنالك طريقتان لتجنب عذابه، الأولى: سهلة للجميع،أن تتقبل الجحيم وتصبح بعضاً منه، فلا تراه بعد ذلك، الثانية خطرة، وتتطلب احتراساً وخشية دائمين: تبحث وتعرف، في وسط الجحيم، مَنْ وما هو ليس جحيماً، ثم تمكنهما من البقاء وتمنحهما مجالاً».

إيتالو كالفينو الذي يدعوه البعض بـ «الساحر»، ويسميه الآخرون بـ «الخرافي» وتقول عنه عبارات النقد التقليدي «البارع متعدد الأساليب». و«له لغة في اللغة».

مهما كانت دقة أو صحة هذه التعابير، فإيتالو كالفينو واحد من الكتاب القلة البارزين، كاتب صار معروفاً بطريقته الجميلة المربكة في الكتابة، وبدهائه في ذلك، لا تقرأ له صفحات حتى تقرّ ببراعته.

روايات كالفينو مشوّقة، والقارئ يواصل قراءة القصة بعد أن يجد نفسه في خضم من المفاجآت المتتالية وقد شدّه عالم زاخر بالوهم والغموض، لكنه قبل هذا يجد فيه شيئاً يعنيه، نداء خاصاً لنقاط بعيدة غافية أو لمسألة منتظرة في ذهنه. هذا هو شأن كل كتب كالفينو يظل فيها القارئ يبحث عن الغرض، عن المغزى الذي يطرحه أو يريده الكاتب وهو يسعى وراء المعاني البعيدة التي يلفها الغموض، والتي هي «خفيّة» وهي قريبة، أيضاً من نفسه.



ISBN 2-84306-136-x

9 782843 061363

تصميم الغلاف: رايح الجندي